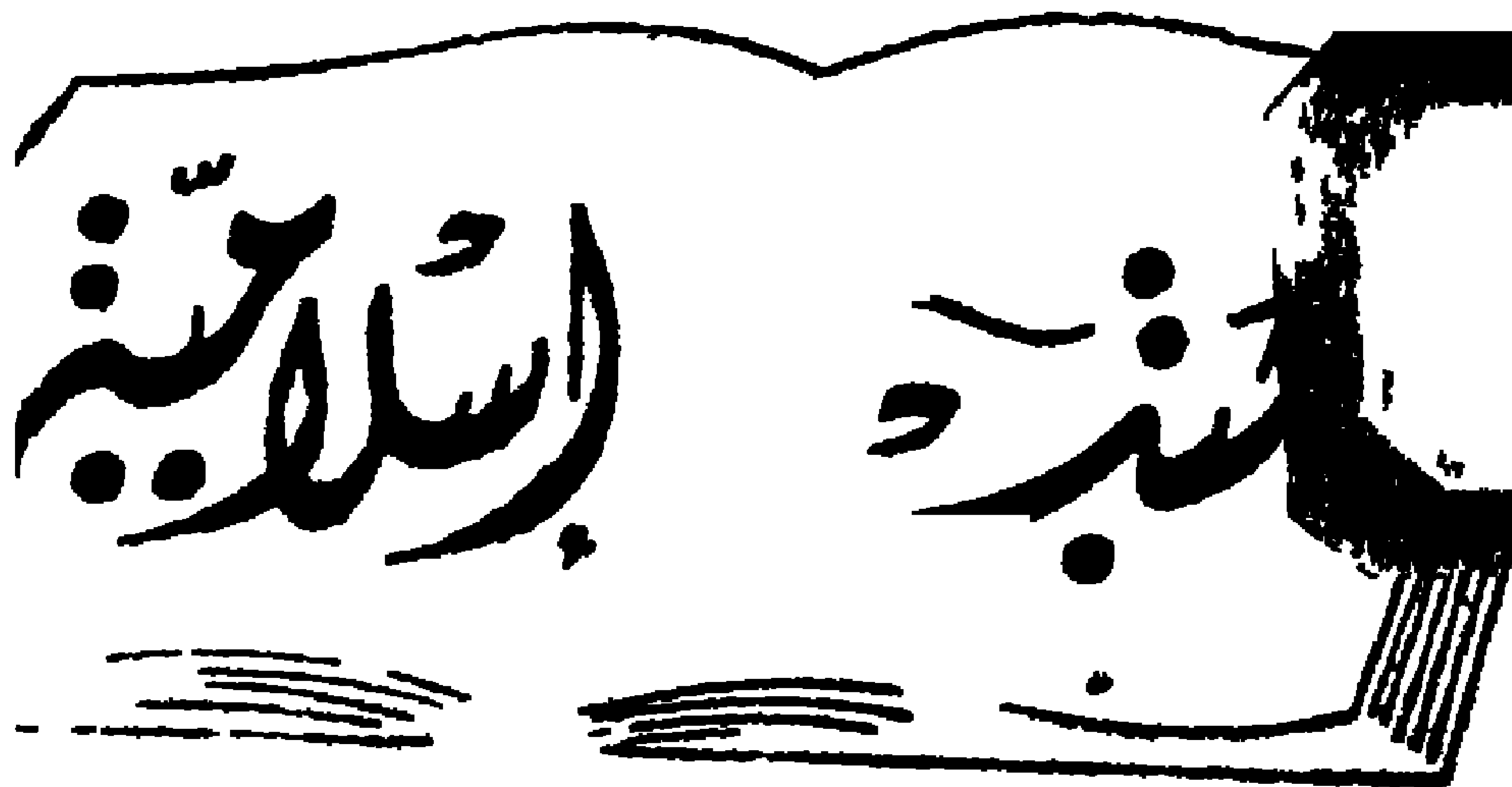
من كفاح النبوة

للأستاذ محمود السعيد الطنطاوي



العدد التاسع والسبعون

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

من كفاح النبوة

للأستاذ محمود السعيد الطنطاوي

« ٧٩ »
السنة السابعة
١٥ من شوال ١٣٨٧ هـ
١٥ من يناير ١٩٦٨ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا
سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

« قرآن كريم »

مقدمة

نزاهة التوحيد :

« قل هو الله أحد . الله الصـــمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

منذ أن خلق الله الأرض وما عليها . والمنكرون لوجود الله . والكافرون والملحدون والجاحدون والمشركون وأتبـــاع ابليس ومن اتخـــذوا الشيطان خليلا ــ يســـألون ــ عن صفـــات الله ويقولون . هل هنـــاك اله ــ وما هو الله ــ وأين هو هذا الاله الذى يدعو اليـــه هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أنبيـــاء ورســـلا ــ ومارب العالمين ــ وجادلوا بالباطل وماروا فى الحق المبين ــ وللمشركين والجاحدين والكافرين قلوب لا يفقهون بها . وعقول لا يعقلون بها ــ وأعين لايبصرون بها ــ وآذان صم عن ســـماع الحق لايسمعون بها الا أباطيل الشياطين ــ

فنزل الذكر الحكيم بلسان الحق المبين ـ مبينا الصفات والأسماء والأفعال التى يوصف بها رب العالمين ـ

هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون .

● هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

● غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير .

● الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

● الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

وجاء فى السنة النبوية الشريفة ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما عرج به الى السماء ورفع الى سدرة المنتهى ووقف بين يدى الله ناداه : هل ترانى بعينيك يامحمد ـ قال النبى ـ قلت ـ سبحانك لا تدركك الأبصار ولا تحويك الأقطار

ولا يغيرك الليل والنهار وأنت الواحد القهــار . الهى وسيدى ومولاى غشى بصرى نورك وبهاؤك وجلالك فلا أراك الا بقلبى.

فقــال الله تعالى ــ صفنى يامحمد ــ فقلت ــ ســبحانك لايصفك الواصفون . ولا يحدك العارفون ولا يحويك الظنون وأنت الله الحى القيوم ــ فقال الله تعالى ــ يا أحمد عظم شــأنى وعز سلطانى وارتفع مكانى . لا اله غيرى . أنا ملك الملوك وقاضى الحاجات . من دعانى أجبته ومن قصدنى أعطيته ومن توكل على كفيته ومن قام على بابى قبلته ومن الآفات والعاهات نجيته ــ

ســبحانك يارحمن يارحيم . يامدبر الأمور ومصرف الليل والنهار ــ يا مجرى الأيام . وجاعل الليل ســكنا ولباسا والنهار معاشا للناس . ولكن الناس جحدوا فضــلك وأنكروا وجودك وكفروا بنعمتك ــ وأنت على كل شىء قــدير ــ ســبق حلمك غضبك ورحمتك وسعت كل شىء . وغفرت اساءة المذنب بعفوك. وفتحت باب التوبة بحلمك . وأنزلت التوراة والانجيل ــ فيهما هدى ونور ــ وآتيت خاتم النبيين والمرسلين . سبعا من المثانى والقرآن لعظيم ــ فيه آيات بينات للناس ومنافع لهم فى الدنيــا والآخرة لعلهم يتفكرون .

« يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من الســـماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

خطاب من الله الى الناس لعلهم يعقلون . ويؤمنون ويدينون لله تعالى ويقرون بالوحدانية له وينزهونه عن كل ما لايليق بذاته سبحانه وتعالى عما يصفون .

فما هذا الكون وما فيه من أسرار . وتعاقب الليل والنهار وهذه السموات ومن فيها والأرض وما عليها .. والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب . وخلق الذكر والأنثى وعمران الحياة بالنسل والزرع . واختلاف الألسنة والألوان — كل هذا دليل قاطع على وجود الله . الخالق البارىء المصور .. وعلى ثبوت الوحدانية والقدرة لذاته . تعالى الله عما يشركون وليس أدل على ثبوت الوحدانية والقدرة لله . من جريان الشمس فى مستقر ثابت لا يتغير .. وتقدير القمر منازل لايتخطاها ولا يتعداها « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وجريان الماء فى البحار بعد انزاله من المعصرات ماء ثجاجا . وتسيير الرياح لواقح للزرع . كل شيء بمقدار .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا » .

هذا الكون البديع الصنع . وهذا النظام الدقيق هو من صنع الرحمن « خلق الانسان علمه البيان » .

فلو تفكر الانسان وتدبر ما أنعم الله به عليه من نعم ظاهرة وباطنة . لمـا ابتغى ربا آخر وترك رب كل شيء ـ الذى رضى بالحمد والشكر ثمنا لجزيل نعمائه « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيهـا زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعنـاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

براهين من الحياة للأحياء لعلهم يتعظون بما يشـاهدونه فى حياتهم ودنياهم ومعيشتهم يرونها بأعينهم ويحسونها بوجدانهم وكلها تدل دلالة واضحـة على وجوب الايمان بالخالق الذى أحسن كل شيء خلقه .

« خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

فمع قيام هذه الدلائل الظاهرة يكفرون بالله ويميلون عن عبادته وينصرفون الى عبادة أصنام وأوثان لاتستحق العبـادة ولا تملك لهم نفعا ولا ضرا .

ثم أتى لسان الوحى السماوى للمنكرين والكافرين ببرهان ظهور الحياة فى المادة ـ وهو برهان قاطع على نزاهة الوحدانية

وثبوتها لله الواحد القهار .. فظهور الحياة فى المادة واخراج الحى من الميت والميت من الحى دليل واضح على وجود الله ووحدانيته.

« ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر » .

براهين قاطعة وحجج دامغة للذين أنكروا وجود الله و تخذوا أربابا متفرقين وعبدوا أصناما صنعوها بأيديهم. فتاهوا فى متاهات الضلال وضروب الأوهام .

فلو كان هناك آلهة غير الله لما سارت الدنيا وما فيها من مخلوقات على هذا النظام الدقيق . ولما كانت السماء وما فيها من عجائب والكون وما فيه من أسرار يسير بهذا النظام البديع المتسع . فلو كان هناك اله آخر لتعالى بعضهم على بعض ولذهب كل اله بما صنعه من المخلوقات ولفسدت السموات والأرض « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

وهذا أكبر دليل على أن الله واحد أحد فرد صمد وأنه خالق كل شيء « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » .

حاجة الناس الى الأنبياء :

حتى لاتقوم للناس على الله حجة وتأتى كل نفس بما كسبت وحتى يحق العقاب على الذين استحوذ عليهم الشيطان . فظلموا أنفسهم وضلوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فجحدوا وكفروا وأشركوا بالله وآذوا الأنبياء والمرسلين .

كان من رحمة الله بالناس ألا يأخذ قوما بالعذاب الا بعد أن يرسل لهم رسولا أو يبعث فيهم نبيا يدعوهم الى عبادة الله وخلع الأوثان والأنداد . ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ــ ولقد اقتضت حكمة الله وارادته أن يخلق الخير والشر . وأن يجعل الخير طريقا الى الجنة والشر طريقا الى النار . وأرسل الرسل والأنبياء ليدعوا الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ويرشدوهم الى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة . وترك للعباد الاختيار بعقولهم وقلوبهم وتجاربهم فى الحياة « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك. ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

الخير والشر فى صراع دائم . تارة يعم الضلال ويستشرى الشر وتسور الحياة مورا ويختلط الحق بالباطل وتنطمس معالم

الصواب وتارة ينتصر الخير بالصبر والثبات والحلم والصفح الجميل ومن هنا نجد أن الأنبياء قد وطدوا أنفسهم على الكفاح المر وعلى مقابلة السيئة بالحسنة والشر بالخير حتى يؤمن الناس بالله ويهتدوا ويأمنوا مكره فيسلموا من عذاب يوم عظيم « يوم ينظر المرء الي ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » .

ولقد اقتضت حكمة الله العلى القدير ألا تكون حياة الناس خيرا محضا ولا شرا خالصا ؛ بل خير وشر ، ويسر وعسر ، وغنى

ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » .

وكذب واصلاح وفساد .. فمن اتبع هدى الله وآمن وعمل صالحا فله جنات النعيم — ومن أعرض عن ذكر الله واتبع الشيطان فله معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى .

ولقد أتى على الانسان حين من الدهر تفرقت فيه الأهواء وضلت الخلائق وعبدوا أربابا مختلفين .

أقوام منهم أنكروا وجود الله ولم يصدقوا أنهم سيبعثون ويرجعون الى خالقهم « وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » .

وأناس من الناس طغوا وتجبروا وادعوا الربوبية والألوهية ولم يؤمنوا بوجود الله أو يصدقوا ، أن هناك ربا للعالمين وكذبوا الأنبياء والمرسلين ..

لهذا كله أرسل الله النبيين والمرسلين لاصلاح ما أفسده المفسدون ببغيهم وضلالهم وليهدوا الى الدين الحنيف ويرشدوا

الغاوين ويقوموا المفسدين ويدعوا الناس والخلائق الى عبادة رب العـالمين « رب الناس ملك النـاس اله الناس » ويقوموا بثورات ربانيـة تخمد الأديان التى هى من صنع الشيطـان . وتكسر الأوثان رمز الضلال والطغيان حتى يعبد الرحمن الذى له ملك السموات والأرض .

ولسنا ندعى أننا قادرون فى هذه الصفحات على تتبع الرحلة الطويلة والطريق الوعر الذى سلكته النبوة ، تقتلع منه أشواك الشر لتزرع مكانه أزاهير الخير ، وتدك حصـون البغى لترفع عليها قلاع الحق ..

وفى كتاب الله الكريم صور لهذا الكفاح ، كفاح الأنبيـاء والرسل ، نمس بعضها مسا هينا رقيقـا ، حتى نصل الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .. فنقف معها شيئا ، لأنها النبوةالتى حوت النبوات ، وطهرت الأنبياء من أكاذيب أهـل الـكتاب .. فأبقت للبشر نزاهة المثل الأعلى ووهبتهم ميزان الحق والخير .. فعلى صاحبها صلوات الله وسلامه ، وجزاه الله عنـا خير ماجزى نبيا عن أمته .

الكفاح من أجل الحياة والأحياء :

شاء الله أن يبعث نبيه « نوحا » عليه السلام . فى مجتمع فقد كل مقومات الانسـانية . وبين قوم هلعين جازعين . أخذتهم العزة بالاثم فكان الظلم والجهل والمعتقـدات الفاسدة أسـاس

حياتهم ــ كانوا لايقدسون معنى الحياة ولا يعرفون النظام وآراءهم من نسج الخيال وأهواءهم متفرقة وكانوا شيعا كافرة تعبد أصناما لاتهدى ولا ترشد فكان مجتمعهم ينذر بالزوال والخراب والهلاك لعبادتهم وسجودهم لآلهتهم ــ ودا وسواعا . ويغوث . ويعوق ونسرا » ــ كل صنم له عبدة من الناس تهيم فيه بالسخافة عقولهم ويابؤسا لهم وتبا لآلهتهم ومجتمعهم المتداعى المنذر بالفناء والبوار .

« انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم .. » يالعظمة الرحمن الرحيم الرؤوف بالعباد . ويا سماحة الخالق الذى اذا أراد أمرا أن يقول له كن فيكون .

يميلون عن عبادته وينصرفون عن ذكره ويتبعوا الشيطان ويعبدوا أصناما صنعوها بأيديهم وأحنوا لها جباههم واستعظموا أن يسجدوا الذى خلقهم ورزقهم ــ ثم ان الله العزيز الكريم لايأخذهم بما كسبوا ولكن يرسل اليهم نبيا . من أنفسهم يهديهم ويرشدهم لعلهم يعقلون « قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون » .

دعاهم نبى الله نوح عليه السلام الى عبادة الله وتقواه وطاعته فى الدنيا وانذرهم وبين لهم أن الله يعفو عن كثير ويتقبل التوبة من عباده ثم حذرهم من تماديهم فى الضلال وعصيانهم وعدم اصغائهم لداعى الحق والهدى. ولكنهم كانوا قوما مهلكين

يستجيبون ولا يستمعون الى الهدى وكلما دعاهم نوح عليه السلام الى عبادة الله أشاحوا بوجوههم ولووا رؤوسهم وجعلوا اصابعهم فى آذانهم . نفورا واعراضا وكرها له ولدعوته . ولكنه عليه السلام قابل نفورهم وجهلهم واعراضهم بالصفح والحلم الجميل وكرر عليهم الدعوة مرارا وتكرارا ودعاهم ليلا ونهارا سرا وعلانية فى غدوهم ورواحهم . ولكنهم كانوا بالله كافرين للحق كارهين « قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا » .

ظل نوح يكافح ويناضل ويدعو قومه الى الايمان بالله يسوق لهم ما يرغبهم فى الايمان وينفرهم من الكفر والشرك والجحود . ولكن كانت قلوبهم مقفلة وعلى أبصارهم غشاوة . فلقد ساق لهم الأدلة والبراهين الظاهرة من نعم الله عز وجل وأن الله سيجزيهم أحسن الجزاء وسيرزقهم رزقا حسنا يدعون فيه اذا اتقوه وعبدوه وعملوا صالحا .

« يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا . مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » أدلة قاطعة على وجود الله وبراهين حية ظاهرة ولكن الظالمين المفسدين لايعتقدون أن هناك الها ولا يخافون

سلطان المنتقم الجبار ولا يخشون عقابه .. وهكذا سول لهم الشيطان فاتبعوه وكانت حياتهم كلها لهوا ولعبا وكفرا بالله واستخفافا بنبى الله نوح . وصدقت عقولهم العفنة ما يوسوس به ابليس اللعين وكذبوا الرسول الذى يوحى اليه من عند الله ولم يتفكروا ويتدبروا فى خلق السموات والأرض « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا » — وأمام ثبات نوح عليه السلام على عقيدته — وتضاله واصراره على أن يؤمنوا بالله حتى لا يروا العذاب والهلاك ويأخذهم الله بكفرهم وضلالهم واصرارهم على عبادة أصنامهم واتخاذهم الشيطان خليلا — طاش عقلهم وأضلهم شيطانهم فتوعدوا نبى الله نوحا وهددوه وتنابذوا فى مجتمعاتهم وتشاوروا فى ضلالهم وقالوا له « لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجمين » — ثم أعلنوا فى عزم وتصميم أنهم لن يتركوا عبادة الأصنام وهم لها عاكفون « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

ضل قوم نوح بأصنامهم وتمسكوا بعبادتها من دون الله فاغتم نبى الله نوح وخاف عليهم العقاب وحزن وأسف عليهم « وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » .

دعاهم الى الهدى وأنذرهم وحذرهم ولكنهم هددوه بالرجم وتوعدوه بالايذاء ان لم يترك هذا الدين الذى يدعوهم اليه وتمسكوا بعبادة أصنامهم فلما رأى نبى الله أن القوم ليس فيهم خير ولا يرجى منهم صلاح وأنهم أماتوا الفضيلة وأحيوا الرذيلة فى الأرض وفسدوا فى البلاد ولم يعد هناك مكان طاهر يعبد فيه رب العالمين.

دعا ربه أن يهلكهم بكفرهم ـ « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا الا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » .

الطوفان :

« واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » .

استجاب الله دعاء نبيه نوحا عليه السلام وأوحى اليه أن يصنع السفينة التى ستكون منجاة له ولمن آمن به ولكل مايحمله معه من مخلوقات الله لأن الباقين من قوم نوح مهلكين لأنهم لا يرجى منهم ولا من ذريتهم خير .. فأذعن نبى الله لأمر ربه وشرع يصنع السفينة فى مكان قصى عن المدينة بعيد عن البحر فكانوا كلما مروا به يضحكون ويسخرون منه فكان يسخر منهم ومن عناهم وكفرهم « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قوما

سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ».

فلما فرغ من السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين وركب معه من آمن به وما آمن به الا قليل ــ وجاء أمر الله وفار التنور. ونزل العــذاب بالقوم ونبع الماء وارتفع بشــدة فكانوا يفرون سراعا ولكن الى أين لقد جاءهم قضــاء الله واغرق الذين ظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله .

فلما هلكوا جميعا وطغى عليهم الماء وهدمت بيوتهم ودفنت أجسامهم في الطين لم تنفعهم آلهتهم — ودا . وسواعا ويغوث ويعوق . ونسرا . ثم غرقت معهم « قيــل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » طويت صفحة القوم المنكرين لوجود الله وهكذا تكون نهاية كل جبــار فى الأرض وكل كافر جاحد ليكون عبرة وخبرا من الأخبــار يتحدث به النــاس في جميــع العصور والأجيال وقد سجل عليهم الوحى السماوى العــذاب والهلاك الذي ذاقوه جزاء لخطاياهم وذنوبهم وكفرهم « مــا خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ».

ولكن هل بعد هــذا العذاب والهلاك الذى تحدثت عنــه الكتب السماوية وروته الأخبار المتواترة للناس .. هل اتعظت الأمم والأقوام التى جاءت بعدهم هيهات « ان الانســان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد » .

صرعاء البغي والضلال :

كان البغي والفساد والظلم والجبروت هو أساس حياة القوم الذين سكنوا أرض الاحقاف باليمن .. وكانوا قريبي عهد بقوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان .. ولقد أنعم الله عليهم ورزقهم من الثمرات والنخيل والأعناب وآتاهم ما لم يؤت أحدا من الناس ـ ولكن نار الالحاد والكفر أتت على كل ينابيع الخير في نفوسهم وقلوبهم فأكلتها وجعلتها كالحجارة أو أشد قسوة ولقد طغى القوى منهم على الضعيف ونسوا الله وعبدوا الاصنام من دون الرحمن . الذى زادهم بسطة فى الرزق وبسطة فى الجسم وحباهم بجنات فيها ما يشتهونه فى الدنيا وجعل حياتهم ومعاشهم كلها خيرات وبركات .

ولكن عادا الأولى ـ وهم قوم هود عليه السلام ـ شقوا عصا الطاعة ولم يتعظوا بما كان من أمر قوم نوح عليه السلام . فلما غوى القوى وطغى الشر على الخير وضلوا ، أرسل الله لهم نبيه هودا عليه السلام لينهاهم عن عبادة الأصنام ويأمرهم أن يعبدوا الله الذى بيده الملك ؛ وأعطاهم حدائق ذات بهجة ما كانوا يستطيعون انبات شجرها وانما الذى أنبتها وأنشأها وأخرج ثمارها ـ ... ولكن قوم هود عليه السلام كان الجهل أطبق على قلوبهم فلم يؤمنوا بهذا الدين الذى يدعوهم اليه هود عليه السلام .

« والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون » دعاهم نبى الله هود الى عبادة الله فلم يؤمنوا وكذبوه ورموه بالسفاهة واتهموه بالعته ، اذ كيف ينهـاهم عن عبـادة أصنامهم ويدعوهم الى عبـادة اله لايعرفونه ، وكيف يتركون دين آبائهم ويؤمنون بدين جديد أتى به «هود» ونمادوا فى كفرهم وغيهم وبغيهم : « قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنـك من الكاذبين قال ياقـوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » .

ظل هود عليـه السلام ينصحهم ويذكرهم بنعـم الله عليهم ويحذرهم من غضب الله ويخوفهم من عذاب يوم عظيم ، وذكرهم بقوم نوح وقال لهـم انى أخاف عليكم من الله أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الهلاك بكفرهم وما هم منكم ببعيـد بل أنتم تعلمـون ما كان منهم وماحل بهم من الهلاك بالطوفان .. ولكنهم كانوا سـفهاء لا يعقلون ولا يفقهـون ولا يؤمنـون الا بتزويق البـاطل الذى زينه لهم ووسوس به فى صـدورهم الشيطان ـ فجردوا عقولهم عن كل آيات بينات مصدقات لما جاء به هود . وسخروا منه وقالوا له ائتنا بهذا العذاب الذى تتوعدنا به « قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » .

فلما رأى هود عليه السلام ، أن القوم فى ضـــلال وظلام ما بعده ظلام . وشر ليس وراءه شر وكفر ليس وراءه الا العذاب والهلاك لهم ولأصنامهم التى يعبـــدونها من دون الله . تبرأ منهم « قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون » .

جزاء الظالمين :

لما لم يؤمن الكفار ويذعنوا للنصيحة ويتركوا الأصـــنام ويعبدوا الله الواحد القهار ولم يتعظوا بقوم نوح الذين أهلكهم الله بخطيـــآتهم . أوحى الله الى نبيـــه هود بأن قومه حق عليهم الهلاك والعقـــاب الا من آمن به وأمره أن يلتزم ومن معـــه من المؤمنين مكانه لايبرحه لأن عذاب الله واقع وآت وأمره نافذ .. وحقت كلمة ربك صدقا وعدلا . ونجى الله نبيه هودا ومن معـــه من المؤمنين ..

وأرسل الله على القوم المهلكين ريحا صرصرا باردة ســـامة شـــديدة الصوت ففروا مذعورين الى بيوتهم ودخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض حتى لايطيروا فى الهواء . ولـــكن الريح كانت تقلعهم من أماكنهم وتنزع رؤوسهم وتتركهم أجسادا بلا رؤوس : « انا أرسلنـــا عليهم ريحـــا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر » .

استكبروا فى الأرض وكفروا بالله وقالوا من أشد منا قوة وجحدوا بآيات الله فأذاقهم الله الخزي والعذاب فى الدنيا والعذاب الآخرة أخزى وأشد ـ جزاء لهم على ظلمهم . أزال الله ملكهم وهدم بيوتهم وخرب ديارهم وأصبحت بلادهم نسيا منسيا وصحراء قفرا وأرضا جرداء ورمالا صفراء ليس فيها زرع ولا ماء ولا أثر لحياة ولا لأحياء » وأرض الأحقاف التى سكن فيها قوم هود . وهم عاد الأولى كانت باليمن . وهي الآن الرمل الناعم الذى بين عمان وحضرموت ، ليس فيها أثر لانس ولا جن ، ولا لحياة ولا لأحياء وهذه هى نهاية الطغاة وجزاء الظالمين والكافرين تسير نهايتهم وعقابهم وهلاكهم حديثا للعالمين ومثلا للآخرين » ..

شـقاء ثمود :

سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لهم كيف حل بهم عقاب الله وكيف أهلكتهم الريح التى سلطها الله عليهم ولكن دن الانسان ما أكفره

أهلك الله عادا الأولى وصاروا مثلا وآية وعظة وعبرة فى جميع البلاد ـ وأورث الله ثمود أرضهم وديارهم فسكنوا فى الحجر بين الحجاز والشام .. فى الطريق الذى بين المدينة وتبوك فعمروها وبنوا فيها القصور ونحتوا فى الجبال البيوت ليكونوا بها آمنين من نوائب الدهر . وأنعم الله عليهم ، وأنزل لهم من السماء ماء فأنبتوا الحدائق والبساتين فعاشوا آمنين ، ولكن

الشيطان أغواهم فكفروا بأنعم الله وعبدوا الأوثان وران الجهل على قلوبهم فكانت حياتهم لعبا ولهوا ، وطغيانا وبغيا ، وعنـادا وكفرا . فبعث الله فيهم صالحا عليـه السلام نذيرا وبشيرا لعلهم يهتدون .

« والى ثمود آخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره . هو أنشـأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب » ولكن عباد الأوثان الذين ضلت عقولهم وعميت بصائرهم اتهموا نبى الله بالكذب وادعاء النبوة وقالوا « ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » ارتابوا فى رسـالته وكذبوه فى دعوته وسخروا منـه ويحكى القرآن الكريم ما كان من سفاهة قوم صالح . فيقول : « قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبـد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب » .

العقـــاب :

«كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها » .

ولقد سجل الله على قوم صالح عليه السلام الكذب وعدم الايمان : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين » .

ثم لجوا فى طلب المعجزة ، وألحوا فى أن يأتيهم صالح بآية، فأوحى الله الى نبيه صالح عليه السلام بأنه مرسل الناقة فتنة لهم. وأن يبلغهم بأن الماء قسمة بينهم وبين الناقة . لها يوم تشرب فيه، ولا يشاركونها ذلك اليوم ، ولهم يوم يشربون فيه ولا تشاركهم فى ذلك اليوم « انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » .

فلما أنبأهم بما أمره الله هاجوا وماجوا وطاشت عقولهم وعموا وضلوا ولم يعقلوا أن هذه الناقة فتنة لهم وستكون سببا فى هلاكهم فأجمعوا أمرهم وانطلقوا بضلالهم الى الناقة يصدونها عن الماء . فخاف عليهم نبى الله صالح الذى ملىء قلبه حبا لهم وجبل على حب الخير وحذرهم من عقاب الله ونهاهم عن أن يمسوها بسوء حتى لايحق عليهم العذاب الأليم ولكنهم كانوا فى ضلال مبين .. فنادوا صاحبهم « قدار بن سالف » فقام هذا الشقى الذى باء بغضب من الله وتناول السيف وعقر الناقة فتهلل القوم فرحا وسرورا وامتلأت بيوتهم ونواديهم ومجتمعاتهم بالسرور وسخروا من نبى الله صالح عليه السلام « وقالوا ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين » .

فلما عم الظلام فى الأرض وطغى قوم صالح وعتت ثمود عتوا كبيرا . وظنوا أنهم فى منعة وقوة وأن بيوتهم التى نحتوها فى الجبال ستحميهم من عوادى الزمان ونوائب الدهر .. حق عليهم الفناء والهلاك فأخذتهم الصيحة . صاح بهم جبريل من

الســماء فارتجفت بهم الأرض وزلزلت بيوتهم ودمرتهــا فوقهم فأصبحوا فى بيوتهم جاثمين . باركين على ركبهم تحت الأحجــار والأنقاض وتفتت أجسادهم . فكانوا كهشيم المحتضر. تفتتوا كما يتهشم الشجر اليابس . صرعى لا حراك لهم . فأصبحوا كأن لم يكونوا شيئا مذكورا ، وأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها

فلما رأى نبى الله صالح عليــه السلام ما حل بهم من العقــاب وما آل اليــه حالهم من الهــلاك أعرض عن النظر اليهــم والى أجسادهم البالية وقال بلسان الوحي السماوى « لقــد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون النلصحين » .

نبى الله ابراهيم

ومكافحته فى سبيل العقيدة :

نشأ نبى الله ابراهيم الخليل فى وسط قوم غرقوا فى بحور الضلال فكانوا يعبدون الأصنام وكانالظلم والجهل سمة الحكام والفساد أساس الحياة . وآلهتهم من صنع أيديهم ولكن العناية الالهية كانت ترعاه وترشده الى معالم الطريق وتعده لأمر عظيم وشأن جليل .

فآتاه الله الحجة القــاطعة ليدحض الباطل . وأنعم عليــه بالبرهان الساطع والمنطق السليم « ولقــد كرمه الله وشرفه فى قرآنه الكريم نذكره فى الذكر الحكيم تســع وستين مرة .. فى ثلاث وستين آية .

شب صلى الله عليه وسلم فى وسط هؤلاء القوم ولكن الله سبحانه وتعالى أنشأه عزيزا كريما وطاهرا عفيفا وهداه الى الحق وملأ قلبـــه بالايمان وفطره على الخير فلم يتدنس بدنس عبـــاد الأصنام الذين كانت فطرتهم مريضـــة وقلوبهم وعقولهم ضـــالة وتأصلت فى نفوسهم المعتقدات الفاسدة ..

فبعث الله نبيه ابراهيم الخليل ليهدى الناس الذين أشركوا وكفروا . ويدعوهم الى عبـــادة رب كل شيء . الواحد الأحد لا اله غيره . رب العرش العظيم . ويهديهم الى الدين الحنيف — فناقشهم عليه السلام بلسان الوحى السماوى مناقشـــة الفطرة السليمة المستقيمة الخيرة التى تتمنى وترجو وتأمل وتعمل لكى يهتدى الناس .

« واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبـــد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .. »

وهكذا وجد ابراهيم نفسه أمام قوم قد انطمست معـــالم الفطرة فى نفوسهم ، وغشتها ظلمات من المسخ والتشويه ، فعطلوا ما وهبوه من طاقات النظر والتفكير . واكتفوا بالذى وجـــدوا عليه الآباء ولو كان هذا السخف السخيف : أن ينحتوا حجارة تكون لهم معبودا مقدسا ..

وكان لابد من ثورة ..

لابد من ضربة مباشرة تنبه هؤلاء الغاوين .

عقد خليل الله العزم على أن يهدم الأصنام ويكسر الأوثان.. وكان عليه أن يقف وحده يبشر بالتوحيد ويدعو الى العدالة ويبين لهؤلاء الكفار أن أصنامهم التى ابتدعوها من نسج الخيال لاتستحق عبادة ولا تقديسا . ويسوق لهم الحجة القاطعةوالبرهان الساطع والدليل العملى على أن أصنامهم لاتملك نفعا ولا ضرا ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى ولا شرا . فذهب خفية الى أصنامهم فوجد عندها طعاما وضعه لها عباد الأصنام فخاطبها متهكما ومستهزئا ومستخفا بعقول الكفار « فقال ألا تأكلون مالكم لاتنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين » .

وحتى لايبقى جحود ولا جمود ولا الحلد واشراك بالله تناول فأسا وأهوى على الأصنام رمز الضلال يكسرها ويحطمها الا صنما كبيرا أبقى عليه وعلق الفأس فى رقبته امعانا فى السخرية منهم وامتهانا لعباد الأصنام ولآلهتهم « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » .

ولما ذهب أهل بابل الى أصنامهم يلتمسون منها البركة ويحنون لها الجباه وجدوا أصنامهم مكسرة وآلهتهم مدمرة الا كبيرهم والفأس فى رقبته . فذهلوا ودهشوا وبهتوا عندما وجدوا آلهتهم على هذه الحال !!.

ويحكي القرآن الكريم بلسان الحق المبين ما كان بينهم من حوار وبين نبي الله ابراهيم الذي دمغهم ودحض باطلهم « قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون »

فجاءوا بابراهيم عليه السلام أمام ملأ وجمع كثير من الناس توافدوا من كل مكان . ولكن ابراهيم الخليل قابل جموعهم بقلب ثابت ولم يجحد مافعله بأصنامهم ــ وشاء أن يبالغ في تسفيه أحلامهم فحاورهم بحجة دامغة وبرهان مقنع ودليل واضح لعلهم يرجعون الى صوابهم ويثوبون الى رشدهم ويعبدون رب السموات والأرض ومن فيهن ولكنهم لجوا في عنادهم « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » .

أقبل بعضهم على بعض يتلاومون . كل منهم يلقى التبعة واللوم على الآخر لأنهم تركوا آلهتهم بدون حارس يحرسها ويمنع عنها الضرر وأقبلوا على ابراهيم عليه السلام يقولون له « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » فلما رأى نبي الله أنهم قوم سوء وجهل وشقاء وكفر والحاد قال لهم « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

جادلوه وحاوروا في الجدال فحاورهم بحوار قوى بحجته قاطع ببرهانه الصادق ــ بالغ بمنطقه الواضح ــ سليم بدليله

الظـاهر المقنع . وألزمهم الحجـة ـ ولكن لم يرق للـكافرين والجاحدين أن ينزلوا على حكم المنطق السليم .

وعمـدوا الى القوة والظلم وأجمعوا أمرهم على التخلص منه وتحريقه بالنار .

وهكذا دأب الباطل فى جميع العصور والأزمان يفـر من ميدان الاقناع والمناقشـة بالحجة والبراهين والمنطق السـليم . عاجزا عامدا الى ميدان القوة والبطش والخيانة والغدر . حيث يفقد الحجة ويعوزه الدليل وينقصه المنطق السليم المقنع ـ لكن العقيدة السليمة قد تمكنت من نفس ابراهيم عليه السـلام فلم يرهب بنيرانهم وعذابهم ـ فلمـا جمعوا الحطب من كل مكان وأوثقوه بالحبال ورموه فى النار كانت عنـاية الله وقدرته ترعاه فكانت النار بردا وسلاما وصارت معجزة ابراهيم الكبرى وآيته البينة وأصبح دليله الواضح على نبوته وعلى قدرة الاله الذى يؤمن به ويدعو اليه . نجاته من النـار « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسـلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

النمرود وباطله المدحور :

صـدق الله وعده ونجى عبده وباء عبـاد الأصنام بالقتل والاثم والخسران المبين . وانتصر الحق على البـاطل . وكانت نجاة نبى الله ابراهيم من النار وتغيير طبعها ونزع حرارتها . قدرة

من الأقـدار الالهية فلم تحرق منه غير الوثلق الذى أوثقوه به وحفظه الله من لظاها وكانت نجاته من النـار معجزة كبرى وآية واضحة ودليلا صـادقا على نبوته وعلى أن الدين الذى جاء به من عند اله قادر على كل شيء .

رأى الناس هذا بأعينهم وشاهدوا النار وهى تميل عن طبعها وهو الحرق الى طبع آخر فأصبحت بردا وسلاما على ابراهيم . فدهش الناس وبهر أهل « بابل » وأوشكوا أن يؤمنوا بابراهيم وكادوا يدخلون فى دين الله أفواجا ولكن « نمرود بن كنعـان » ــ ملك هذه البلاد ما ان علم بما كان من أمر ابراهيم وأن النار التى أشعلها أتباعه لم تحرق منه شيئا غير الحبل الذى أوثقوه به وأن الهه الذى يدعو اليه نجاه منها سليما صحيحا معلق ، وسمع بأن الناس يتحدثون بهذه المعجزة الكبرى ، فخاف على ملـكه وسلطـانه . فأرسل أتبـاعه الى ابراهيم ليـأتوه به وكان هذا ــ النمرود ــ فى ضـلال ما بعـده ضلال فهو أول مـن ادعى الربوبية ودعا الناس الى عبادته وطغى واستكبر وبغى .

فلما دخل عليـه نبى الله ابراهيم عليه السـلام بادره قائلا ما هذه الفتن والآراء الفاسدة التى أشعلتها بين الناس وما هـذا الأمر المنكر الذى تدعو اليه عبادى وعبيدى . هل لك ربا سواى تعبده . أنا رب الناس والى أهل بابل وماحولها من البلاد، وليس هناك اله غيرى يستحق العبادة والتقديس .

ولكن نبي الله ابراهيم عليه السلام كان صورة من صور الحق ونبيا مرسلا من رب العالمين ، وكان أحب شيء الى قلبه والى نفسه أن يجاهد في سبيل الله من أجل الدين الحنيف ليرضى الله ويهتدي الناس ـ فكلن لايبالي أن يقذف به في وجه الباطل ليدفعه ويقضي عليه بالحجة القاطعة والدليل الصادق .. فرد ابراهيم على النمرود وهو في وسط ملكه وحوله أتباعه وملؤه من الناس « ربي الذي يحيي ويميت » .

فقال النمرود : أنا أحيي وأميت، أحيي من أشاء بالعفو عنه بعد أن يحكم عليه بالموت فينعم بعفوي ويعيش في الحياة وأميت من أشاء بحكمي وقضائي عليه بالقتل فيفارق الحياة ويكون في عداد الأموات بكلمتي في أي وقت أشاء . فلم يأت ربك الذي تدعو الناس الى عبادته بجديد ولا بشيء عظيم يستحيل على ويستحق به أن يعبد دوني .

رأى ابراهيم عليه السلام جهل هذا الغر المفتون الذي غرته نفسه بنفسه فتطاول على الله وتمادى في الباطل وادعى الربوبية . ورأى جرأته الوقحة على الله وما تنطوي عليه نفسه الخبيثة من غي وضلال وجهل وظلمات بعضها فوق بعض وشر ليس وراءه شر

ولكن ابراهيم الخليل أفحم ذلك الجاهل المغرور المفتون المنغمس في الضلال والزور .. فأراد أن يظهر كذبه ويوضح ضلاله ويبين الناس جهله وما تنطوي عليه نفسه من سفاهة وضلال ويريهم أن ربهم والههم ـ النمرود بن كنعان ـ خبيث الخلق

سيء المتبت يجادل بالباطل ويراوغ ويمارى ويضلل .. فقـال له بلسـان الوحى السماوى « قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـا من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهـدى القوم الظالمين » صعق النمرود وغلب على أمره وبهت الـكافر وقهر وتحير ولم يستطع أن يردجوابا واعتراه الذهول. فقد بان عجزه وكذبه وجهله أمام هذه الحجة القـوية فقد دمغه ابراهيم الخليل بالدليل الصادق والبرهان الساطع وبين له كفره وعبثـه وعمى قلبه .

حسب النمرود بن كنعان الذى حاج ابراهيم فى ربه ، وأضل كثيرا من الناس ، أن تبقى قصته أسلويا ممتعا يتهكم به الزمان ويرويه التاريخ عظة وعبرة فى جميع العصور والأجيال .

هجرة ابراهيم الخليل :

طاش عقل النمرود ، وفزع من هـذا الدين الذى يدعو اليه ابراهيم عليه السلام ، فبيت النية على الغدر به ، وأوعز الى أتباعه أن يبطشوا به ويرهبوه ليرجع عن هذا الدين الذى فيـه خطر على سلطانه وعرشه ولـكن نبى الله ابراهيم لم يسكن له جهد ولا تضاءل فى ايضاح الحق ومحاربة الشر وتبصـير الناس غير مبال ولا هياب بالنمرود وأتباعه ؛ ولكن هؤلاء ضيقوا عليه الخناق ، وابتدعوا الأكاذيب المفتريات لايذائه .. فلمـا وجدهم ابراهيم قد لجوا فى عنادهم ، وبالغوا فى ايذائه ارتحل عنهم الى

بلاد أخرى يدعو فيها الى عبادة الله لعله يجد آذانا صاغية تهفو لسماع الحق وقلوبا خيرة تبحث عن الحقيقة فهاجر الى بلاد « حران » ..

ولكنه وجد قوما سفهاء يعبدون الكواكب من دون الله فعمل على اقناعهم باظهار الحقيقة لهم متدرجا معهم فى أسلوب الاقناع من منزلة الى منزلة يأمل ويرجو ويتمنى أن ينفذ الى شعاع من الخير فى نفوسهم عسى أن يستطيع هدايتهم عن طريق هذا الشعاع وناقشهم مناقشة عقلية بأسلوب علمى منطقى .

فلما رأى نجما مضيئا فى السماء لامعا فى الفضاء قال هذا ربى ، فلما غاب وأفل وانطفأ لمعانه قال لا أحب أن يكون ربى متغيرا يزول ويتحول بل يكون ربى سرمدا باقيا .

ثم نظر فوجد القمر أكبر حجما وأكثر لمعانا وأسطع نورا فقال هذا ربى ، لكنه ما لبث أن توارى وانحدر وغاب فقال .. ما هكذا يكون الاله .. ودعا الله الرحمن الرحيم وطلب منه أن يهديه ولا يجعله من الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة ومتألقة ترسل أشعتها وتبعث حرارتها وتملأ الدنيا نورا . قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت وانحدرت فى الهبوط وزالت قال ياقوم انى برىء من آلهتكم واشراككم .

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هـــذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضـــالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون » .

ولما يئس نبى الله ابراهيم من اصلاح أهل « حران » وعم بلادهم القحط والجدب ارتحل الى مصر . وكان فيها ملك طاغية جعل الناس عبيدا لشهواته ، فلما علم بوجود ابراهيم الخليل وزوجته سارة أمر أتباعه باحضارهما ، فلما دخلا عليه قال له من هذه الذى معك . نعلم ابراهيم ما تنطوى عليه نفس هذا الملك من شر . فقال له : هى أختى ، وأسر الى زوجته أن تصدقه اذا سألها الملك . وزاغ بصر الملك وأراد أن يستأثر بها لنفسه . ولكن الله حفظ لها كرامتها وألقى الرعب فى قلبه من جهتها عندما اختلى بها فتركها وشأنها وأحسن اليها ووهب لها « هاجر » تابعة لها . وكان ذلك فضلا وبركة من الله .. وأقام ابراهيم فى مصر مدة من الزمان يدعو أهلها الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعاش فى مصر ماشاء الله ثم ارتحل الى فلسطين . ليكمل كفاحه وجهاده فى سبيل الله .

صـــبر النبوات :

بالعزيمة النبيين وبالجلال المرسلين . ان الصفحة الآتية من حياة نبى الله ابراهيم وزوجه « هاجر » المصرية . التى وهبتهـا له زوجه سارة .. لتبعث الجوى فى النفس وتثير الشجن . وانها والله لمحنة وابتلاء للايمان الوثيق واعلام للناس كيف تفعل العقائد السليمة فى نفوس المعتقدين فى الله والمؤمنين به ايمانا خالصا من شائبة الشرك وبقضائه وقدره خيره وشره حلوه ومره . وتعريفا للناس بأسرار الطاعات للواحد القهار . واختبارا للصابرين .

شيخ هرم تقدمت به السنون والأيام وأحناه الدهر وعركته أحداث الزمان . وبلغ منه الكبر وأصبح شيخا عجوزا فى حاجة الى من يشد عضده . يتمنى أن يكون له ولد ويأمل طول عمره أن يرزقه الله بغلام يشب معه ويساعده ويشد أزره ويكافح معه فى سبيل الله . وكان يبتهل الى الله ويدعوه أن يهبه من الصالحين. فولد له اسماعيل من « هاجر » المصرية التى وهبتهـا له زوجـه سـارة .

ففرح به وحمد الله وشكره على ما أنعم به عليه وقرت عينه به . ولكن الأقدار كانت تدبر أمرا قضـاه الله وأراده الرحمن . وفرقت بين الوالد وولده وهو مازال فى المهـد صبيا وحكمت الأقدار الالهية أن يتربى الطفل بعيدا عن والده ويعيش غريبـا فى هذه الحياة .

ولأمر ما أراده الله وكتب فى اللوح المحفوظ ، أخذت الغيرة قلب زوجته سارة ودب الشقاق والخلاف فى بيت ابراهيم الخليل. ومازالت سارة تطلب من زوجها أن يبعد هاجر وولدها . حتى نزل على رأيها وأخذ الطفل وأمه هاجر وارتحل وظل سائرا بهم حتى وصلا الى مكان قفر عند ربوة عالية حمراء حيث أطلال البيت العتيق فى واد غير ذى زرع وليس فيه انس ولا حياة وتركهما فى هذا المكان وانصرف متضرعا الى الله أن يكلأهما بعنايته ويشملهما برعايته « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

حاولت هاجر أن تستعطف ابراهيم الخليل عليه السلام حتى لايتركها هى وطفلها فى هذا المكان القفر الذى ليس فيه زرع ولا ماء ولا حياة ولا أنيس ولا جليس ولكنه لم يستمع الى كلامها ولا الى توسلاتها فقد كان ينفذ أمر الله ووحى السماء ولما هم بالانصراف وتركها قالت له وهى تنادى عليه الى من تكلنا فى هذا الوادى القفر الموحش ، فقال لها : الى الله ، فقالت: الآن أصبر فالله لايضيعنا .

أذعنت هاجر لأمر الله وامتثلت لقضائه وقدره . وأقبلت على طفلها تحنو عليه وترضعه . ولكنها ما لبثت أن تذكرت بعد وقت يسير أن الزاد والماء الذى تركه لهما ابراهيم عليه السلام قد وألم بها وبطفلها الجوع والعطش وجف لبن ثديها ولم تعد

تستطيع أن ترضع وليدها وبدأ الطفل يبكى من الجوع ويتلوى من العطش والظمأ . فأحزنها وأهمها وكربها بكاء طفلها ونظرت اليه فوجدته يحتضر فأهاجها أن ترى ابنها يحتضر والموت يقترب منه أمام عينها فقامت مذعورة تجرى وتبحث عن المـاء والغذاء ولمحت سرابا نحو الصفا فحسبته ماء فهرولت نحوه وصعدت على الصفا فلم تجد شيئا فنظرت الى الطفل وهى فوق الصفا لتطمئن عليه فوجدته يقرب من الموت من شـدة الظمأ فنظرت فى الأفق أمامها فرأت . المروة . ولمحت عنده سرابا ظنته ماء فهرولت مسرعة نحو المروة فلم تجده شيئا بل كان سرابا ولشدة ظمأ طفلها وظمأ قلبها ظلت تسعى مهرولة بين الصفا والمروة سبعة أشواط يحدوها الأمل فى أن تجد ماء وغذاء حتى أعياها الاجهاد ونال منها التعب. فوقعت بجانب طفلها صابرة محتسبة تنتظر قضـاء الله وقدره . وبينما هى فى هـذه الحالة بين اليأس والحيـاة والأمل والرجاء والطفل بين الموت والحياة ويضرب فى الأرض بقدميه من شـدة ما به من العطش اذ بعناية الله ترعاه وينبع الماء من تحت قدميه . وذلك لأن الله بعث جبريل عليه السلام فهمز له بعقبه فى الأرض فنبع ماء زمزم للطيبين والطيبات وفاض ماؤها على الأبرار الأطهار فقامت هاجر وارتوت هى وطفلها من نبع « زمزم » التى لاتنزف ولا تذم وتسقى الحجيج الأعظم من الناس الى يوم يبعثون .

أدركت رحمة الله هاجر وابنها اسماعيل « ان رحمة الله قريب من المحسنين » وعاش اسماعيل وتربى فى وادى مكة . ليلتقى مع أبيه فى رسالة السماء .

محنة ابراهيـــم :

كان ابراهيم عليه الســـلام طائعا لله طاعة الأبرار التى تستنفد كل شيء فى هذه الحياة . وسماعه الوحى السماوى واذعانه لأمر ربه كان سماع الطائعين المخلصين ينفذ ما أمره الله به مهما خالف الطبيعة الانسانية .

أمر فى منامه أن يذبح ولده فقام من نومه ممتثلا لأمر ربه مؤثرا رضاء الله على رضاء قلبه متغلبا على العاطفة الأبوية وكان ســيدنا اسماعيل وهو مازال غلاما صغيرا مفطورا عــلى الخير وصورة صادقة من ايمان أبيه . فأخبره أبوه بما رأى فى منــامه فقال له « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين »

ما هذا البلاء العظيم والامتحان القلبى الشديد الذى يخالف الطبيعة البشرية والعاطفة الأبوية ؟! ولكن العظام كفء للعظائم فعلى قدر علو منزلتهم ومقدار ايمانهم واخلاصهم وثبــاتهم على عقيدتهم يكون ابتلاؤهم واختبارهم حتى يكونوا أهلا للرسالة ولأن يسموا أنبياء ويحملوا اسم المرسلين .

وانه لصنع جليل من ابراهيم الخليل ومن اسماعيل . حرى بأن يسجله الرحمن فى الذكر المحفوظ ويقدره الوحى السماوى حق قدره فى القرآن الكريم . فقال تعالى « فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ســتجدنى ان شــاء الله من

الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاءالمبين وفديناه بذبح عظيم » .

ـ شاء الله . وكتب فى اللوح المحفوظ أن تكون نجاة اسماعيل رأفة ورحمة بالعباد حتى يصير ذلك منهاجا وشريعة للناس يمشون عليها ويأتى الرجل بابنه فيذبحه .

لذا لم تكتمل المأساة ولم يتم الذبح الذى امتحن فيه سيدنا ابراهيم عليه السلام وسيدنا اسماعيل . فكان الولد والأب خاضعين من أعماق سرائرهم لله طائعين مستسلمين للقضاء والقدر فجزاهما الله أحسن الجزاء وقرت عين ابراهيم عليه السلام بابنه الذى فداه الله بذبح عظيم . وكان ذلك فضلا وبركة من الله . والله رؤوف بالعباد .

مع الصابرين :

ما أحسن التسليم والاذعان للقضاء ، وما أجمل الامتثال والصبر عند البلاء ، وما أعظم الايمان بقضاء الله وقدره خيره وشر حلوه ومره ايمانا بالله وتسليما للقضاء والقدر فثواب ذلك من الله عظيم ـ ففى حديث رب العزة « من لم يرض بقضائى وقدرى فليطلب ربا سواى » ولقد كان يوسف عليه السلام وأبوه يعقوب عليه أزكى السلام من الصابرين المحتسبين الذين صبروا على الأهوال واستقبلوا المحن بقلوب

عامرة بنور النبوة . فلم يقنطوا من رحمة الله ولم يلجأوا الى غيره اذا مسهم الضر . لأنهم كانوا يؤمنون بالله ايمان الأنبياء المصطفين الأخيار الذين أعدهم الله للرسالة ووحى السماء .

ففى وسط عاصفة هوجاء من الحقد الأسـود والفتنة التى أشعلها الشيطان فى قلوب اخوة يوسف الذين لم يراعوا حق الدم ولا صلة الرحم ولم تأخـذهم الرأفة بشـيخوخة والدهم الكبير الذى عركته الأيام وأحنته السنون . ولم تأخذهم الشفقة بالطفل الصغير « يوسف » فعدوا عليه وألقوه فى الجب لكى يتخلصوا منه ويخلوا لهم قلب أبيهم ويصبح حبه لهم خالصا فقد كان يوسف وأخوه أحب الى أبيه منهم .. هكذا ظنوا ووسوس لهم الشيطان . كان يوسف عليه السلام مفطورا على الخير وكان من صغره ملهما لا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح ولقد أنعم الله عليه وأراه فى منامه رؤيا قصها على أبيه فعلم يعقوب عليـه السلام بعد أن استمع الى رؤيا الغلام أن ليوسف شأنا وسيكون من الذين أنعم الله عليهم — ويحكى القرآن الكريم بلسان الوحى المبين « اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبـا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمتـه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم » .

نصح يعقوب عليه السلام ابنه يوسف بأن لايقص رؤياه على اخوته حتى لا يحتالون لهلاكه غيرة وحسدا ويكيدون له كيدا لا يستطيع دفعه وهو صغير .

أحس اخوة يوسف بمنزلته عند أبيه فأغواهم الشيطان وأعمى الحسد بصيرتهم وأكلت نار الغيرة والحقد قلوبهم فعزموا على هلاك يوسف وهو صغير ودبروا أمرهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ليشيع في بيت نبي الله يعقوب وبين أبنائه الخلاف والبغضاء وينشر الشر والفرقة بينهم فقد كانوا اثنى عشر ولدا ليعقوب عليه السلام أنعم الله بهم عليه وقر عينه بهم وأولاد يعقوب هم : يهوذا ورأوبين . وشمعون . ولاى . ويساكر . وزبولون من زوجه ، ليا وتفتالى . ودان من بلهة جارية زوجه راحيل وجاد . وأشير . من زلفة جارية . ليا . ويوسف وبنيامين من راحيل .

ولاحظوا أن يوسف وأخوه بنيامين أحب الى نفس يعقوب وأن يوسف أقربهم الى قلب يعقوب وأحبهم الى نفسه . لاحظوا هذا .

« اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » .

اجتمعوا وتشاوروا ودبروا . وأخيرا أخذوا برأى أكبرهم يهوذا . فهو الذى اقترح عليهم القاء يوسف فى الجب وتركه للاقدار اما أن يموت غريقا واما أن يلتقطه بعض المارة من البلاد البعيدة فيبيعونه عبدا رقيقا » .

فذهبوا بمكرهم وشرهم وكيدهم وخداعهم وتضليلهم يطلبون من أبيهم أن يعطيهم يوسف .

« قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون . قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون » .

أخذوا يوسف ومشوا به الى الجب وما ان وصلوا اليه حتى قست قلوبهم كالحجارة وغلظت أكبادهم ، فجردوه من قميصه ورموه فى الجب وتركوه تلعب بحياته الاقدار . وما أخذتهم الشفقة ولا الرحمة بالطفل الصغير وهو يتوسل اليهم ويبكى لعله ينفذ الى شعاع من الرحمة فى قلوبهم — ولكن الله منجيه وحاميه ومعده لأمر عظيم فلا بد أن يكلأه برعايته ويشمله بعنايته وينجيه من هذا الهول والهلاك فربط الله على قلبه ورزقه بالفرج بعد الضيق وباليسر بعد العسر وبالخير بعد الشر .

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون » .

ولكن الله الذى نجاه من الجب والغرق لابد أن ينجيه من رق الدنيا وعبوديتها . فاشتراهعزيز مصر وقال لامرأته أكرمى مثواه وربيه أحسن تربية عسى أن تتخذه ولـــدا وينفعنا ، ولكن الـــذين اصطفاهم الله لابد أن يمتحنوا بشـــدائد الفتن حتى يكونوا أهلا للرسالة ووحى السماء وقدوة حسنة للعباد .

المحنـــة العظمى :

كانت نجاة يوسف عليه السلام من الغرق فى الجب قدرا من الأقدار الالهية . فقد كانت العناية الالهية ترعاه وتعده لأمــر جليل فأنجاه الله من رق الدنيا وجعله فى بيت عزيز مصر لينشأ مكرما معززا تعلو رأسه فوق الرءوس ونفسه فوق النفوس فلم يدنس بأى دنس مما يفعله أهل مصر ، أو تنكس الغربة والوحدة رأسه ، أو يذله الاغتراب عن أهله فنشأ عزيزا كريما وشب طاهرا عفيفا .

وكان اخوة يوسف فرحين مستبشرين بأن يوســف لقى مصيرا وحتفا مشئوما وأنهم تخلصوا منه . وكان أبوه يعقوب فى مناحة وأسى . وهم وحزن على ما أصــاب ابنه — ولــكن الأقدار كانت ضاحكة مستبشرة بما أعــدته ليوســف — تربى يوسف ونشأ فى بيت عزيز مصر « فويطار » رئيس شرطتها فى ذلك الزمان وأمين خزائنها ، ولقد كان « فويطار » يحب يوسف فمن أول يوم اشتراه قال لزوجته « زليخا » « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

ولكن ما ان شب يوسف واستوى عوده حتى ابتلته الأقدار بالفتنة الكبرى والبلاء العظيم الذى دخل السجن به . وهو برىء من تهمة شنيعة . كما كان الذئب برىء من دمه . فلقد استملحته امرأة العزيز فى عينها واشترته نفسها وعاشت فى أحلامها وتمنته فى منامها حتى لعب الهوى بعقلها وأمال الغرام قلبها فأغواها شيطانها . أن تلوح ليوسف فى كلامها لكى يعلم ما بها ويطاوع ما ابهم بسكنون قلبها — ولكن التلويح فى الكلام لم يأت بالمرام فاستعملت أسلوبا آخر فجعلت تتعرض له فى طرقات بيتها وتبدى مفاتن جسدها لتثير انتباهه حتى تصل الى ما تشتهيه نفسها . ولكن يوسف عليه السلام غض بصره عنها وكان قلبه العامر بالايمان بالله فى شغل شاغل عن ما تبديه من أفعالها . فقد كانت حادثة نجاته من الجب وفدائه من رق العبودية فى أسواق مصر . ارهاصا بالنبوة وعلامات على أن الله يعده لأمر عظيم . فكان شاكرا لله مسبحا ذاكرا فضل ربه — ولكن امرأة عزيز مصر كان قلبها فارغا فأسكرها الهوى وسلب الحب فؤادها فشغفت يوسف حبا وغراما وهياما . فطال ليلها وبعد النوم عن جفونها وتملكت أوهام الغرام قلبها فطاش عقلها . وكلما ازداد يوسف اعراضا وصدا عنها ازدادت لوعتها وجن عقلها . وضاعفت عفته وطهارته افتتانها به فصممت على أن تكيد كيدا كبيرا تنال به مآربها وهداها شيطانها وأوحى اليها بفكرة خبيثة تنال عن طريقها مالم تستطع أن تنله بالتلويح والتعريض وعجزت عنه بحيلها ، كل

هذا وسيدنا يوسف عليه السلام لا يدرى من أمرها شيئا فقد كان قلبه وعقله وكيانه متجها الى الله .

وحدث ذات يوم أن دعته الى مخدعها فذهب اليها ظنا أنها ستكلفه بعمل يؤديه. فقد تربى فى بيتها وكانت عنده بمنزلة أمه . ولكنها كانت تمكر به . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .. فما ان دخل عندها حتى أسدلت ستائرها وأغلقت الباب وقالت له لقد تهيأت لك فأخذته الدهشة والحيرة والعجب من أمر هذه المرأة التى كان يعاملها معاملة الأم « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لايفلح الظالمون » .

خاف يوسف مقام ربه وقال لامرأة العزيز معاذ الله أن أفعل الفحشاء وأغضب ربى الذى هدانى ونجانى ورعانى ويعلم سرائر النفوس وحاش لله أن أخون عزيز مصر الذى وثق بى وربانى وأنزلنى فى بيته منزلة الأبناء وأكرم مثواى .

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » .

همت به وكان الهم من جهتها عزما وجزما وتصميما على ارتكاب المعصية واصرارا على أن ترتكب الفاحشة ، وهم يوسف أن يبطش بها ويدفعها بالقوة وكاد يفعل لولا أن رأى برهان ربه وألهمه الله أن لا يقابل كيدها وضلالها بالشر حتى لا

يكون ذلك حجة لها عليه أمام الناس وتقول انه أراد اغتصابها . فربما تتعلق به من الأمام وتمزق ثوبه فيكون فى هذا دليلا على دفاعها عن نفسها وسندا للسفهاء من الناس للتقول على يوسف وكان ذلك فضلا وبركة من الله . فلقد أراه ربه شناعة الفحشاء وحفظه منها فأعرض عنها . فلما رأته لايجيب داعى الهوى ولم تستهود فتنتها وجمـالها وحسنها وزينتهـا التى كانت حديث المدينة . امتلأت نفسها غضبا وطاش عقلها وتطاير الشرر من عينيها فلما رأى يوسف ذلك وأن المرأة مصممة على أن تركب الفاحشة جرى نحو الباب فرارا من النار المشتعلة فى قلب هذه المرأة التى أمات الله قلبهـا وانساقت وراء شهواتها ولكنها أرادت أن تبلغ ما تريده نفسها بأى وسيلة مهما كان الثمن فجرت وراءه مسرعة وجذبته من ثوبه حتى تحول بينه وبين الفرار منها فشقت ثوبه وهى تتعلق به من الخلف لتمنعه من الخروج « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم » .

بينما يوسف يذعن لبرهان الله ويفر من الفتنة والفحشاء اذ بعزيز مصر زوج زليخا ، بالباب ويرى قميص يوسف ممـزقا وتسرع المرأةبكيدها . وتفكر بسرعة وتحبك كيدها وتنفى التهمة عن نفسها وتقول لزوجها لقد هم بى يوسف وأراد أن يـدنس شرفى وشرفك ويدوس عرضى وعرضك ويهتك سترى وسترك . وكانت جريئة فى افترائها وبهتانها وزورها وأخذت ترمى يوسف بالخيانة لعزيز مصر الذى رباه وأحسن اليه .

ولكن لايعدم الحق أنصارا فى كل زمان ومكان . فعندما يعم الظلام ويستشرى الشر على الخير وتنطمس معالم الصواب يرسل الله من يعين الحق ويدحر الباطل . فبينما يوسف يدافع عن نفسه أمام عزيز مصر والمرأة يعلو صوتها وتريد أن تلصق التهمة به اذ بابن عمها يدخل عليهم فلما عرف القصة شهد شهادة وحكم حكما أبرأ يوسف وأدان امرأة العزيز « وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم » .

وهكذا يحكى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . جهاد سيدنا يوسف عليه السلام لنفسه وخوفه مقام ربه ونهيه نفسه عن أن تطاوع هذه المرأة الشيطانية وأذعن لبرهان ربه وتوكل عليه .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره » .

حديث المدينـــة :

شاع بين الناس وتحدثت نسوة المدينة عن امرأة عزيز مصر الذى أسكرها الهوى وأمال قلبها وافتتنت بغلامها الذى ربته فى بيتها وتحدثن عن طهارة يوسف وعفته وعن سفاهة «زليخا» وطيشها ولاكت الألسنة سيرتها وقالوا فى شأنها أنها أحبت الغلام الذى هو بمنزلة ابنها وهامت به وأصبحت لاتنام مما ألم بها من

الوجد والغرام . وأنه أعرض عنها وهي الآن تجـالد سكرات الهوى وتكابد مشقة الهيام والحب حتى لا يفتضح أمرها ولكن عيونها ودمعها وتعبيرات وجهها تفضحها فلقد انصرف عنها وتركها في كيدها ولوعتها واعتصم بالله من سهام سحرها . فلما سمعت بما تحدثن به النسوة وبمقالتهن . حز ذلك في نفسها وجـرح كبريائها . فأعملت فكرها ودبرت لهن مكيدة أكبر من مقالتهن . فدعتهن الى طعام وقدمت لهن فاكهة وأعطت كل واحـدة منهن سكينا ثم قالت ليوسف أخرج عليهن « فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » .

تهلل وجه امرأة العزيز وغمرها السرور والتشفى من النسوة اللائى تحدثن فى سيرتها وصاحت بهن ما بالكن قطعتن أيديكن والدماء تسيل منها . أليس هذا الذى لمتننى فيه وتحدثتن عنى وعن غرامى به . لقد رأيتموه عرضا وشاهدتموه لمحا أما أنـا فيعيش معى فى بيتى وأراه فى الصباح والمساء أفبعد ذلك يقع على لوم منكن فى غرامى له . وفى نشوة الحب ولوعة الغرام وسكر الهوى . نسيت المـرأة نفسها وطرحت كبرياءها وراء ظهرها وخرجت عن طورها وعزتها أمام نسوة المدينة وفى غير حياء . قالت بصوت مسموع لهن جميعا « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

وأقبل النسوة على يوسف يزينون له امرأة العزيز ويرغبونه فيها ويصفون له جمالها ويدعونه الى اجابة طلبها . ولكن يوسف عليه السلام كان نبيا رسولا ومن الصالحين الذين عصمهم الله وفطرهم على الفضيلة فقال « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » .

فلما رأت . زليخا . أن يوسف لن يطاوعها فى هواها . لجأت الى استعمال سلطة زوجها ربما تنال بالارهاب والتخويف والتهديد بالسجن ما عجزت أن تناله بالترغيب والود والتصريح — ولكن يوسف اعتصم بالله منها وأبى أن يجاريها فى مهاويها — فما زالت بزوجها تحثه على أن يثأر لكرامتها وينتقم لشرفها من يوسف الذى جعلها مضغة فى أفواه نساء المدينة حتى أدخله عزيز مصر السجن بريئا من ذنب لم يرتكبه » .

نبوة يوسف :

اكرم الله يوسف بنبوته وعلمه تأويل الأحلام وكان يوسف عليه السلام قد دخل السجن مظلوما وقام يوسف وهو فى السجن يدعو المسجونين الى عبادة رب واحد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليكونوا نواة لدعوة التوحيد

« ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » وشاء الله وشاءت ارادته أن يمكن ليوسف فى الأرض وأن يخرجه من السجن أمينا على خزائن مصر .

رأى ملك مصر فى منامه رؤيا أفزعته وأقلقت باله فجمع وزراءه وعلماءه وأصحاب الرأى « وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ افتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

عجز الوزراء والعلماء وأصحاب الرأى عن تفسير رؤيا الملك وقالوا له أباطيل منامات ووساوس شياطين وأضغاث أحلام وما نحن بتأويلها بعالمين — وكان هناك خادم عند الملك يسقى ماء . كان سجينا مع يوسف عليه السلام . فما ان سمع بهذه الرؤيا وبقلق الملك وضيقه منها وعجز الناس عن تفسيرها حتى تذكر يوسف الذى أنساه الشيطان ذكره فلما كانت هذه الرؤيا ، تذكر ما كان لاهيا عنه . وأن يوسف كان قد طلب منه أن يذكره عند الملك « وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » .

أنعم الله على يوسف وأكرمه وتذكره الخادم الذى أنساه النسيان أن يذكر يوسف عند الملك فلما دخل الخادم على الملك قال له ان فى السجن فتى يقال له يوسف ، بتأويل الأحلام وتفسيرها من العالمين وكان يوسف لا يفسر رؤيا الا وجاء تفسيرها صحيحا دنيا على نبوته وصدق دعوته . فاستأذن الخادم الملك أن يذهب الى يوسف وقال له أرسلنى اليه وأنا آتيك بخبر يقين عن تفسير رؤياك .

يوسف يضع أول تنظيم للادخار وتخطيط للاقتصاد :

بنور النبوة وهدى التوحيد وبوحي من السماء فسر يوسف عليه السلام رؤيا الملك وبتفسيرها وتأويلها وضع أول تنظيم للادخار وتخطيط للاقتصاد عرفته البشرية ليكون منهاجا ودستورا يسير به الناس . وطريقا يمشي به نظام حياة الناس في معيشتهم جيلا بعد جيل . لتسير دنيا النـاس بنظام وحسـاب وتخطيط دقيق .

فلما دخل رسول الملك وخادمه على يوسف عليه السلام قال له « يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » .

فسر يوسـف رؤيا الملك ــ أول السبع بقـرات السمان والسبع سنبلات الخضر . بسبع سنين خصـبة تأتي بخير كثير يعم البلاد وفيها بفيض النيل بالماء ويزدهر محصول البلاد وتأتي الحقول بمحصولات وفيره ينعم بها الناس —

وأول السبع العجاف والسبع اليابسات بسبع سنين جدباء تقل فيها مياه النيل ويعم القحط البلاد وتأتي هذه السنين القحط في أعقاب السنين الخيرة التي تكثر فيها محاصيل البلاد فتأكل ما تبقى منهـا وتكون معيشة النـاس ضنكا . ثم بعـد ذلك يأتي عام يغيث الله الناس ممـا هم فيـه من الجـوع والفقر

وتكثر خيرات البلاد ويعم الرخاء وبعد أن فسر يوسف الرؤيا . طلب من رسول الملك أن يخبره بأن يمشى على النظام الذى سيضعه يوسف لهم حتى يستطيع أن ينقذ البلاد من شر الفقر والجوع وهول القحط فى هذه السنين السبع الجدباء وقال لخادم الملك « تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

رأى ملك مصر أن صاحب هذا التخطيط والتنظيم الذى فسر رؤياه وأولها تأويلا راجحا . له عقل ناضج ورأى سديد وتفكير سليم فرأى أن يستعين به فى تخطيط وتنظيم اقتصاديات البلاد لكى ينهض بشعبه ويعيش الناس فى آمن واستقرار لا يذلهم الفقر ولا يهددهم الجوع .

فقال لعماله ولخادمه ائتونى بهذا الفتى الذى يسمى يوسف

فلما ذهب اليه الخادم وأخبره أن الملك يريده — أبت نفسه الكريمة ألا يكون لأحد من الناس فضل عليه وأن يكون الفضل فضل الله — فقال للخادم ارجع الى الملك فاسأله عن حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وماذا قالوا وما كان من شأن زليخا امرأة عزيز مصر « قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم » .

أبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن ممنونا عليه بعفو من أحد من الناس متفضلا عليه من انسان . لأن نفسه الكريمة تعفو أى شىء وتأبى أى عفو غير عفو الله الذى بيده المصير وهو على كل شىء قدير — وكما دخل السجن مظلوما مشهرا به ومفترى عليه . لابد أن يخرج منه منصفا على ملأ ومشهد من الناس حتى يعلم السفهاء الذين تقولوا عليه أن نفسه الطاهرة الكريمة لم تهم بشىء من ذلك ولم يدنس بدنس الجهال ولم تلم عينه بريبة أو تحدثه نفسه بخطيئة مطلقا وأن ماكان . هو من تدبير ومكر وكيد امرأة عزيز مصر ..

وأمام اصرر سيدنا يوسف عليه السلام وشدة احتياج ملك مصر الى أن يستنير بآرائه . جمع الملك نسوة المدينة وأتى بامرأة العزيز وقال لهن ما خطبكن وما شأنكن مع يوسف . فقالوا جميعا حاش لله ومعاذ الله أن يعمل سوءا فوالله ما علمنا عليه الا خيرا وما رأينا منه الا أدبا جما وخلقا كريما . وشهدن جميعا بطهارته وعفته ولقد سجل القرآن الكريم براءة يوسف عليه السلام وعفته وطهره وخوفه مقام ربه وعصمته من أى شىء مريب فقال تعالى « ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » .

شهد الجميع ببراءة يوسف وطهارته وأنطق الله امرأة العزيز التى دبرت المكيدة فشهدت بصدقه وأمانته ووفائه وطهره وخلقه

الكريم وبعده عن الآثام وقالت فى جمع من الناس أمام الملك والوزراء ونسوة المدينة اللاتى تحدثن قبلا فى حقها .

قالت الآن . آن للحق أن يرتفع مناره ويعلو على الباطل عاليا خفاقا ويظهر واضحا جليا أمام أعين الناس ليتبينوه بعد ما خفى زمنا . وليعلم الشاهد الغائب أن يوسف برىء ومن الصادقين الطاهرين الأبرار . أنا أغوانى الشيطان وفتننى وأضلنى وأعمانى فتعلقت بيوسف وشغفت به حبا وتمنيته فى منامى وملأ حبه قلبى وأسكرنى الهوى فلوحت له بغرامى وعرضت له بمرامى وصرحت له بما فى نفسى وطلبت منه الفاحشة بلسانى . ولكنه كان صادق الوعد لله وكان لدينه مخلصا ولزوجى وفيا وأمينا فلم يطاوعنى فى ضلالى . وخاف مقام ربه ونهانى عن الفساد ولكن الشيطان أضلنى فدخل السجن بكيدى وتدبيرى مظلوما غير منصوف بريئا مفترى عليه ووالله انه لمن الصادقين .

« ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين »

رأى ملك مصر امرأة العزيز وهى تتحسر وتندم على ماكان منها وسمعها بأذنيه تعلن أمام عينيه براءة يوسف وطهارته وصدقه وأمانته فما كان من الملك الا أن جعله أمينا على خزائن مصر .

« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » .

مكن الله ليوسف فى الأرض وجعله آمينا على خزائن مصر . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلقد كان طفلا صغيرا . ملقى به فى الجب ثم بيع فى أسواق مصر وبعد ذلك دخل السجن . واليوم أصبح من وزراء مصر وأمين خزائنها . فلقد رآه ملك مصر كريم الخلق عليما بوجوه مصالح الناس خبيرا فى شئون اقتصاديات البلاد .

وجاء تأويل يوسف لرؤيا الملك تأويلا صادقا يدل على صدقه ووفور عقله وكماله . ورجاحة رأيه . فلقد عم مصر والبلاد المجاورة لها القحط والجدب زمنا كان مقداره سبع سنوات وأتت هذه السنوات فى أعقاب سبع سنوات كانت كلها خير وبركة وكان يوسف حاكما فطنا فأعد الخزائن وملأها بالخيرات من محصول البلاد استعدادا لسنين القحط والعسر . فلما جاءت السبع السنون العجاف استقبلها أهل مصر آمنين مطمئنين الى سياسة يوسف عليه السلام الحكيمة الرشيدة فلم تهتز اقتصاديات البلاد أو تهددهم المجاعة بل عاشوا سعداء آمنين شر الجوع بما وضعه لهم نبى الله يوسف عليه السلام من تنظيم للادخار وتخطيط للاقتصاد .

سماحة يوسف :

كانت الأقدار الالهية تهيىء يوسف للأمر الجليل والشأن العظيم فأصابته بالفتنة الكبرى التى أدخلته السجن وكانت هذه الفتنة وما صاحبها من ملابسات وحواش من كيد امرأة

العزيز ثم شهادة النسوة وشهادة امرأة العزيز بطهارته وبراءته . دليل على أن السماء ترعاه وأن الله يكلؤه بعنايته وكان ذلك الحادث الجلل الذى أصاب البلاد فجاء تفسير يوسف للرؤيا تفسيرا صادقا وتخطيطه وتنظيمه للادخار والاقتصاد الذى عاد بالأمان والرخاء على البلاد . كل هذه الحوادث بملابساتها وحواشيها وما أعقبها من نهاية حسنة كان بشيرا ونذيرا بنبوة يوسف ودليلا على صدقه .

ولقد كان ذلك كله وما لاقاه من أهوال وفتن ودسائس وما انتهت اليه نتائجه كل ذلك كان أصدق برهان على أن يوسف نبى مرسل وأن وعد الله حق . فمهما اشتدت الخطوب واستحكمت . فان الله لابد بالغ أمره . ولقد مكن الله ليوسف فى الأرض وأصبح أمينا على خزائن مصر .

ولأمر أراده الله وقضاء قضاه . عم القحط والجدب مصر والبلاد المجاورة لها وتناقل الناس أخبار مصر بأن فيها وزيرا حكيما على خزائنها عليما بوجوه أمورها . وضع لها تنظيما وتخطيطا أنقذها من المجاعة ولم يمس أهلها الضر من سنين الجدب ولم يشردهم الفقر أو يهددهم الجوع . وذلك بفضل ما أعده يوسف من تنظيم للادخار وتخطيط لموارد البلاد وتوزيع للخيرات بين أبناء مصر توزيعا عادلا بالقسطاس المستقيم فأقام مجتمعا كله عدالة وكفاية وانتاج ومدخرات ـ وبلغت هذه الأخبار أرض كنعان التى يقيم فيها يعقوب وأولاده . فقال يعقوب

عليه السلام لأبنائه ان الجوع والقحط يكاد يهلك بلادنا فسيروا في الأرض واذهبوا الى عزيز مصر لعلكم تأتونا بخيـر من عنده ويجعل الله لنا مخرجا من هذا القحط على يديه .

« وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » يا لسخريات القدر ويا عجبا الزمان ـ قدروا ليوسف الهلاك وقسوا عليه وظلموه وهو صغير ليتخلصوا منه ولكن الأقدارقدرت أن تسخر منهمفيأتون اليه ـ وهوكبير ـ محتاجين الى عطفه وكرمه ولقد كان يوسف عليه السلام نبيا كريما سمحا فما ان دخلوا عليه حتى عرفهم ولم يعرفوه ومرت بخياله الذكريات المرة والأهوال التى قاساها منهم وبسببهم تربى غريبا وعاش بعيدا عن أهله محروما من عطف أبويه ومع هذه الذكريات الأليمة فقد رحب بهم وأكرم ضيافتهم وفتح صدره لهم ولم يبد لهم أى سوء ـ وهذا أقسى وأشد أنواع الجهاد فى سبيل الله وهو جهاد النفس ـ يا للسماحة العالية والأخلاق الكريمة وا قلب الطاهر آذوه صغيرا وكانوا سببا فى تشريده واليوم يكرمهم ويحسن لقاءهم ان هذا لهو الخلق العظيم .

ثم تاقت نفسه أن يعرف أخبار أبيه يعقوب وأخيه بنيامين . فسألهم من أنتم ومن أى البلاد جئتم . فقالوا نحن اثنى عشر أخا أولاد يعقوب النبى الصالح الكريم . وها نحن أمامك عشرة . أما الحادى عشر فقد خلفناه عند أبيه وأما الثانى عشر فلقد فقدناه صغيرا وما نعلم من أمره شيئا . وكان يوسف عليه السلام حكيما

فضنا فلم يعلن عن نفسه ولكنه بعد أن أعطاهم وزودهم بالخير قال لهم لن أعطيكم شيئا بعد ذلك الا اذا جئتم بأخيكم الذى خلفتموه مع أبيكم يكون دليلا على صدقكم ــ ووفى لهم الكيل وقال لفتيانه ضعوا لهم ثمن الطعام الذى دفعوه فى بضاعتهم من غير أن يعرفوا أنكم وضعتموه فى رحالهم ــ ولما عادوا الى أبيهم دخلوا فرحين مهللين شاكرين ليوسف حسن صنيعه وكرمه وقالوا لأبيهم لقينا انسانا نبيلا ووزيرا حكيما ورجلا كريما . أجزل لنا العطاء وأكرم ضيافتنا وكان بنا برا رحيما ولكنه اشترط علينا فى المرة القادمة أن يكون معنا أخانا فقال لهم يعقوب عليه السلام لقد آمنتكم على يوسف من قبل فافتقدته ولن آمنكم على بنيامين .

« ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » .

وأمام الحاحهم على أبيهم وشدة احتياجهم الى خيرات مصر التى تحت يد يوسف عليه السلام وتهديد الجوع لهم . أذن لهم يعقوب أن يأخذوا معهم ــ بنيامين ــ على أن يأخذ منهم ميثاقا وعهدا مؤكدا بأن يعودوا به ــ أو يهلكوا دونه اذا ألم به مكروه فأعطوه العهد والميثاق بأن يحفظوه ويرعوه ولا يفرطوا فيه ونصحهم يعقوب عليه السلام بأن يدخلوا من أبواب متفرقة اتقاء للحسد والمن « ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه » .

أنزل يوسف أخاه بنيامين • معه فى بيته وأخبره بأنه أخوه الذى افتقده من زمن بعيد وقال له لا تخبر اخوتك بهذا واجعله سرا بينى وبينك . ولما انتهت مدة اقامتهم بمصر وأزمعـوا على الرحيل طلبوا من يوسف أن يجهزهم بجهازهم . فامر غلمانه بأن يجهزوا لهم رحالهم وأمرهم بأن يوضعوا « السقاية » وهو اناء للملك كان يشرب فيه ، وكان يكال به الطعام لعـزة وغلو ماكان يكال فى ذلك الزمان . الذى عم فيه القحط .

فلما هموا بالانصراف نادى المنادى فيهم أيتهـا العير انكم اسـارقون فدهشوا وذهلوا وسألوه ما الذى ففـد منـك فقال «صواع الملك» «قالوا تالله لقدعلستم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين » .

حكمو بأنفسهم بالجزاء على من توجد السـقاية فى رحله . فبدأ يفتش أوعيتهم قبل وعاء أخيه فلما فتش وعاء أخيه أخرجها منه فوجموا وخجلوا جميعا «فالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وما دروا أن الذى يتهموه بالسرقة هو الذى يقفون أمامه وجلين . وكان الشىء الذى يرمون يوسف بسرقته هو أنه حدث وهو صغير أن دخل كنيسة فوجد فيهـا صنما من ذهب يعبده أهل هذه الكنيسة فأخذه ودفنه فى التراب وأنه كان لجده لأمه صـنم من ذهب وفضة فكسره وألقـاه على الطريق . ولو كانوا يفقهون لعلموا أن هذا ليس بسرقة انما هو احتقار للاصنام

وكره لها من الطفولة وأن ذلك ارهاص للنبوة والهام لمن هو أهل للوحى والالهام أن يحارب الأصنام ويحطمها ويدفنها فى التراب وهو طفل صغير . انما ذلك كله كان من علامات النبـوة وتأهيل للرسالة ومحاربة للوثنية من الصغر فأسر يوسف مقالتهم فى نفسه ولم يبد لهم شيئا وقال لهم اتركوا من وجدنا صواع الملك فى رحله واذهبوا أنتم الى بلادكم .

« قالوا يأيها العزيز ان له أباشيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون » .

فلما يئسوا من أن يجيبهم الى طلبهم وهمـوا بالعودة الى ديارهم قال لهم كبيرهم . يهوذا . أنسيتم أن أباكم أخذ عليـكم عهدا وموثقا من الله أن ترجعوا اليه بأخيكم سالما وقبـل ذلك فرطتم فى يوسف أنا لن أبرح مكانى وتذهبون أنتم الى أبيكم لتخبروه بما كان « ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسـأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون » .

فلما دخلوا على أبيهم وقصوا عليه ما كان من أمر «بنيامين» قال لهم بل سولت لكم أنفسكم أمرا وزين لكم الشيطان تدبيرا « فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

امتلأ قلب يعقوب عليه السلام حزنا وجعل يذكر يوسف وبنيامين وما أصابهما ثم طلب من أبنائه أن يذهبوا ليتعرفوا شيئا من أخبارهما فذهبوا الى يوسف طمعا فى أن يعطيهم بنيامين . أما يوسف فهم يعرفون أن مصيره مجهول لأنهم ألقوه فى الجب بأيديهم ـ فلما دخلوا على يوسف قالوا له يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة قليلة فلقد تقلب الدهر علينا فأوف لنا الكيل وتصدق علينا بالافراج عن « بنيامين » انا نراك كريما محسنا .

« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

جزاء الصابرين :

الدهر قلب والزمان تصاريفه عجب . بالأمس عدوا عليه صغيرا وألقوه فى الجب طفلا لا يملك دفع الأذى عن نفسه واليوم يسترحموه ويستعطفوه كبيرا يمتلك القدرة والقوة والسلطان . ومن قبل لم يرحموا ضعفه ولم تلن قلوبهم لدموعه وتوسلاته وتركوه فى الجب تلعب بمصيره وحياته الأقدار ، واليوم يقفون أمامه وجلين مستسلمين مستكينين . تغمرهم الندامة والحسرة والخزى بما فعلوه به ، ويتوسلون اليه أن يعفوا عنهم ويعلنوا أسفهم وندمهم ويلومون أنفسهم ، ولكن الله أعطى

يوسف عليه السلام خلقا كريما وسماحة عالية وقلبا طاهرا رحيما. فقال لهم نبى الله يوسف ـ لا لوم ولا تأنيب ولا ندامة يغفر الله لكم جميعا .

« لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم جميعا » .

أتم الله نعمته على يوسف ودخل عليه اخوته وأبويه يعقوب وزوجه لأن أم يوسف توفيت قبل ذلك .

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ».

وفى الله الصابرين أجرهم . فما أجمل الصبر عند البلاء وما أحسن التسليم عند نزول القضاء فثواب ذلك عند الله عظيم ـ ولقد أتم الله نعمته على يوسف وعلى أبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام فقابلها نبى الله يوسف بالحمد والشكر لله وطلب منه حسن العاقبة وصلاح الخاتمة وتوجه الى ربه بقلب عامر بالايمان وبنور النبوة ورسالة التوحيد داعيا شاكرا لله أنعمه .

« أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

ويل للمطففين :

دستورهم الحرام . وشريعتهم الربا والغبن والضلال . وفى معاملتهم يبخسون الـكيل والميزان ، هكذا كان أهـل مدين الذين أقاموا بأرض « معـان » فى أطراف الشـام . كانوا من العرب الأجلاف الذين طغى الجهل وغلب على عقولهم وقلوبهم فضلوا . وأشركوا وكفروا بالله وبخسوا الناس أشياءهم ونسوا الله فأنساهم أنفسهم . فكان مجتمعهم يقوم على الظلم والجـور والزور والبهتان والغش والخداع وأكل الأموال بالباطل ، فقام شعيب عليه السلام يدعوهم ويرشدهم ويهديهم وينهاهم عن السرقة فى المكيل والموزون . فقد كانوا اذا أخذوا لأنفسهم شيئا من الناس استوفوه وأخذوه وافيا وزائدا . واذا أعطوا أحدا شيئا أعطوه ناقصا ــ وهكذا كان دأبهم فى البيع والشراء وكل معاملتهم ــ فأمرهم نبى الله شعيب عليه السلام بالمعروف ونهاهم عن المنكر ولقد بين القرآن الكريم ما كان من أمر أهل مدين « والى مدين أخاهم شعيبا قا ل ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

ولكنهم كانوا قوما باغين فلم يذعنوا ولم يؤمنوا وينتهوا عن أكل أموال الناس بالباطل وتذامروا فيما بينهم وقعـدوا له فى الطرقات يهددون من آمن به واتبعه، بالقتل والتعذيب ويصدونهم عن سبيل الله . فلما رأى نبى الله شعيب عليه السلام عمى قلوبهم

وضلالهم وحبهم للأموال وبخسهم للناس أشياءهم ــ ذكرهم بما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط . لعلهم يتعظون ويهتدون « ويا قوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد » .

أسدى لهم النصح ووعظهم وخوفهم عقاب الله ولكن قلوبهم كانت مقفلة وعيونهم عليها غشاوة فقالوا له فى جفاء وعناد واصرار على الضلال « ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

كانت قلوبهم ميتة فنبذوا أمر الله وراء ظهورهم واتهموه بالكذب والشعوذة فلما علم الله أنهم لن يستجيبوا لنبيه شعيب ولن ينتهوا عن أكل أموال الناس بالباطل وأن الكفر والفساد متأصل فى نفوسهم حق عليهم العقاب فصاح فيهم جبريل عليه السلام فزلزلت الأرض بهم ورجفت فأهلكوا جميعا وهكذا جزاء المفسدين « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

ولما رأى نبى الله شعيب ما حل بهم من الهلاك أعرض عنهم وهو حزين على ما اصابهم . ولكنه سرعان ما تذكر فسادهم وكفرهم وعدم اذعانهم لنصيحته وأنه بلغهم رسالة ربه ولكنهم حاربوه وصدوا عن سبيل الله فانصرف عن التأسى عليهم وقال بلسان الوحى المبين « فكيف آسى على قوم كافرين » .

ويقال والله أعلم ان نبى الله شعيبا بعث مرتين ولم يبعث نبى مرتين غيره . بعث مرة الى أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ثم بعثه الله مرة أخرى الى أصحاب الأيكة الذين أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة. وقال تعالى فى شأن أصحاب الأيكة « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم » لما كذبوا شعيبا وأصروا على كفرهم وبغيهم وظلمهم . حق عليهم الهلاك فبلاهم الله بالحر أياما فكان الماء لا يروى ظمأهم . وظلال البيوت والأشجار لاتمنع عنهم الحر الشديد فرأوا ذات يوم سحابة فأسرعوا اليها يحتمون بها فوجدوا لها بردا ونسيما فاستظلوا تحتها من هذا الحر الشديد الذى عذبهم أياما رأوا فيها الهول من شدة العطش وقسوة الحرارة فلما اكتمل عددهم تحت السحابة ألهبها الله عليهم نارا . وصاح فيهم جبريل عليه السلام فأحرقهم جميعا .

ويوم القيامة ستكون نار جهنم عليهم أشد حرا . جزاء لهم على كفرهم وضلالهم وفسادهم وغرورهم بالحياة الدنيا « ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

موسى كليم الله :

شاء الله أن يصنعه لنفسه وعلى عينه ويكلأه من المهد لكى يشب عزيزا كريما ليكون نبيا مرسلا الى بنى اسرائيل يزلزل عروش الطغيان ويدحر الشيطان ويدمر جبروت الطاغية الظالم الجبار الذى علا فى الأرض وطغى . وغرته نفسه بنفسه فنادى فى

الناس « أنا ربكم الأعلى » وعـدا على بنى اسرائيـل يستحيى نساءهم ويذبح أبناءهم ويسـيمهم الخسف والذل والعـذاب والهوان وظن أن لن يقدر عليه أحد .

ولكن شاء الله وشاءت الأقدار أن يتربى فى بيت فرعون طفل صغير يشب أمام عينيه ويستوى عوده على يديه ثم يكون بعـد ذلك سببا فى هلاكه وزوال ملكه وتدمير طغيانه وجبروته .

ويوم ولد نبى الله موسى كانت أمه « يوكابد » فى مناحة وأسى ولوعة وحسرة خوفا على ابنها من فرعون .. فلقـد ولد موسى والموت ينتظره طفلا رضيعا . ولكن عناية الله حفظته .

وذلك لأن فرعون مصر فى ذلك الزمان رأى رؤيا أفزعته فلما قصها على وزرائه وكهانه تقدم اليه أحد الكهنة وقال له يولد فى بنى اسرائيل مولود يذهب ملـكك على يديه وقد أظلك زمانه فثارت نفس الطاغية وهاج هائجه وأمر بذبح كل مولود ذكر يولد فى بنى اسرائيل . ولكن الأقدار سخرت منه وشاءت ارادة الله أن يكون فرعون سخرية للقدر . فأوحى الله الى أم موسى وألهمها أن تلقيه فى اليم بعـد ولادته وتتركه لمشيئة الله « وأوحينـا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

وأذعنت أم موسى لأمر الله ولقضائه وألقته فى البحر وتركته لمشيئة الله وقالت لأخته اذهبى وتحسسى أخباره عن بعد « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما

كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون » .

وكادت « يوكابد » أم موسى تصرح بأنه ابنها من شـدة وجدها وخوفها عليه من المصير المحتوم الذى يلقاه أطفـال بنى اسرائيل على يد فرعون ولكن الله ربط على قلبها وألهمها الصبر والسلوان وحرم على موسى المراضع ورده الى أمه حتى تعلم أن وعد الله حق .

«وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمه كى تقـر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون»

تربى موسى فى بيت فرعون . ورعته امرأة فرعون وكانت من الصالحين فأحسنت تربيته فنشأ عزيزا كريما تقيا مؤمنا ــ وهكذا دبر فرعون أشياء وقدرت الأقـدار غيرها وخطت له مصـيرا مشئوما يكون على يد هذا الطفـل الذى يكره مثـواه ويرتاد بنفسه ويربيه بيديه .

تآمر الفرعونيين بموسى :

شب موسى واستوى عوده وآتاه الله الحكمة ووضـع فى قلبه التقوى فكان يمقت الظـلم والظالمين وكان قويا شـديد البـأس . وذات يوم رأى رجلا مصريا يسـخر رجلا عبرانيـا ويستعبده بالقوة فاستغاث العبرانى بموسى فوكز المصرى ليدفعه

عن ظلم العبرانى فقضت عليه الوكزة من غير قصد . فندم على ذلك وتوجه الى الله بقلب سليم يستغفره ويتوب اليه « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين . فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما . قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس » .

سمع الفرعونى هذا الحوار بين موسى والعبرانى فذهب الى قومه وقال لهم ان موسى هذا الذى قتل المصرى الذى نحن فى حيرة من أمر قاتله فأجمعوا أمرهم على قتل موسى . ولكن عناية الله كانت تحرسه وترعاه لتحفظه للرسالة السماوية التى أعد لها . وكما نجاه الله من الذبح وهو صغير فسينجيه من مؤامرة الفرعونيين وهو كبير .

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين » .

أكرم الله موسى ونجاه فتوجه الى بلاد مدين ولما ورد الماء وجد حشدا كبيرا وأمة كثيرة من الناس يتزاحمون على مورد الماء ووجد هنالك فتاتين لا تسقيان فقال لهما ما خطبكما ولماذا لا تسقيان مع الناس . قالتا انا ضعفاء لا نستطيع أن نزاحم فى وسط هذا الجمع وانا ننتظر حتى ينصرف الرعاة فنسقى . وأبونا شيخ كبير « فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير . فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان

أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » .

وكان الخير كل الخير في هذا اللقاء بين شعيب وموسى فقد آواه الشيخ الصالح والنبي الناصح شعيب عليه السلام . وزوجه احدى بناته وكان ذلك فضلا من الله .

ويستبين لنا من قصة فرعون مع قوم موسى أن الذبح كان للأطفال والسبي للنساء والقتل للرجال والاستعلاء في الأرض وعداوة الأديان وادعاء الألوهية كل ذلك كان شريعة فرعون الذي طغى وتجبر ونسي أن الله أكبر وأعظم .

فلما كثر الظلم وعم الفساد وانطفأ نور الحق . أوحى الله الى نبيه موسى أن يذهب الى فرعون وملئه يدعوهم الى عبادة مالك الملك الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير لا اله غيره خالق كل شيء حتى لا يكون لفرعون ومن معه حجة على الله يوم يجمعهم للحساب .

فاستأذن موسى ربه في أن يكون معه أخوه هارون لأنه أفصح منه لسانا فأذن الله له . وقال تعالى « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا انني معكما أسمع وأرى » .

سار موسى برسالة ربه الى جبار الأرض . ويحكي القرآن الكريم الحوار الذي دار بين موسى وفرعون الذي بادر موسى

وهارون قائلا لهما ـ « فمن ربكما يا موسى » فقـال له موسى عليه السلام « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » فراوغ فرعون وزاغ ومارى بالبـاطل فقال لموسى « فما بال القـرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهـدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

بهذا النقاش المهذب والأدب النبوى الجم والحوار القـوى القاطع لكل حجة . ناقش موسى عليه السلام فرعون مصر . ولكنه كان من الخاسرين الذين حق عليهم العذاب والهلاك فلم يجـد جوابا يستطيع أن يرد به على موسى فهرب من ميـدان الاقناع والمجادلة بالمنطـق والبـرهان الى ميـدان السـخرية والباطل والاستخفاف فـأراد أن يستخف بموسى ويهزأ بالحق الذى جاءه به فقال له « انى لأظنك يا موسى مسحورا » .

فأرى موسى الآية الكبرى والمعجزة الدالة على صدقه وصدق رسالته فألقى عصاه فاذا هى حية تسعى . وأخرج يده فاذا هى بيضاء ناصعة . فجمع فرعون السحرة وقال لهم هذا ساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فتواعدوا مع موسى على أن يلتقوا معه فى يوم يشهده الناس فاما أن يعجزهم موسى ويبطل سحرهم واما يظهروا عليه فلما كان اليوم المشهود الذى تواعدوا فيه « قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى. قال

بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى .
فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الأعلى وألق
ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح
الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون
وموسى » .

رأى السحرة بأعينهم معجزة موسى الكبرى والبرهان الصادق والدليل القاطع على صدق دعوته فآمنوا جميعا برب موسى وهارون وخروا ساجدين خاشعين مؤمنين بالله رب العالمين .

ولكن برهان الايمان كان أعلى من شعوذة السحر وتخييل الشيطان وذهب عن القوم زيف فرعون ، وسكت عنهم هاتف الخوف الا من رب العالمين .. فجاء جوابهم على تهديد فرعون :
« لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا »
ولكن فرعون الذى أضله الشيطان عن الهدى وأغواه ، طاش عقله وتمادى فى سفهه وقال لهم كيف تؤمنون قبل أن آذن لكم وهددهم وتوعدهم بالقتل والعذاب وزمجر وعربد ولقد سجل عليه القرآن الكريم غروره وبهتانه فقال تعالى « قال آمنتم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل » .

بيت الكافر فرعون النية لهلاك موسى ومن معه من المؤمنين ولكن الله الذى يعلم سرائر الأنفس وما تخفى الصدور أنبأ نبيه

موسى بما عزم عليه فرعون « ولقد أوحينـــا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقـــا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشي . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » .

حسب هذا الجاهل المغرور المفتـــون الذى أضل قومه عن الذكر بعد اذ جاءهم على يد موسى وهارون . أن يخذله شيطانه ولا يستطيع له عونا ولا مساعدة فلقـــد خرج فرعـــون وهامان وجنودهما يطاردون موسى ومن آمن به من بنى اسرائيل ولكن الله نجي نبيه موسى ومن معه وشق لهم طريقا فى البحر فساروا فيه سالمين وأغرق الله فرعون ومن معه وأزال ملكه وطواه فى اليم وحق عليه العذاب ــ وهكذا أصبحت حياة فرعون وعبثه قصة خالدة بخلود القرآن الكريم لتكون مثلا وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

خاتم النبيين :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثـــل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنـــة فى زاوية من زواياه . فجعل النـــاس يطوفون به ويعجبون له . ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا تلك اللبنة . وأنا خاتم النبيين » .

بعث خاتم النبيين فى وسط مجتمـــع فقـــد كل مقـــومات الانسانيـــة ولم يكن بقى من الديانتين الســـماويتين اليهـــودية والنصرانية الا رسوم بالية وأهواء ضالة وقوانين جائرة ابتدعها

الأحبار والكهان ليأكلوا الدنيا باسم الدين ، جاء محمد صلى الله عليه وسلم ودنيا الناس مليئة بالشر والظلم والرعب والفجور. وعالم الانسانية ليس فيه سهل ولا وعر الا تردى وهوى فى أحضان الرذيلة فلا طهر ولا عفاف ولا صدق فى القول ولا سلامة فى الصدور التى فى القلوب .

كانت الروم والفرس فى حروب طاحنة . والعرب يغير بعضهم على بعض . وتقوم بينهم الحروب لأتفه الأسباب ووأد البنات والتمثيل بالقتلى كان من مفاخرهم ومآثرهم .

كان العالم كله فى ذل وكفر واشراك بالله وعبادة الأصنام والأوثان والأرباب التى من نسج الخيال هى معتقدات الناس يعبدونها ويهيمون فيها .

فلما عمت الفوضى واستشرى الظلم ومارت الحياة مورا وهام الناس فى الضلال وتاهوا فى متاهات الظلام وماتت الفضيلة والتبس الحق بالباطل ــ بعث الله نبيه محمدا عليه السلام ليقتلع الشرك من جذوره ويهدم الأوثان ويكسر الأصنام ليعبد الرحمن الرحيم. وتصير أرض الله خالية ومطهرة من الأوثان حتى يؤمن الناس بالواحد الأحد ويهتدى الضالون ويتوب العاوون وينصف البائسون ولكن عباد الأصنام وأحبار اليهود وكهان المسيحية وكفار قريش ضل سعيهم وتمسكوا بكفرهم وآذوه وعادوه ولكنه صمد وكافح وناضل حتى أدى الأمانة وبلغ الرسالة .

كذبوه وتفننوا في ايذائه وكان أول من آذاه أهله وعشيرته وقومه ، اتهموه بالكذب تارة وبالجنون تارة أخرى ثم أغواهم شيطانهم وهداهم الى اتهامه بالسحر .

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب » .

دهشوا وعجبوا كيف يجعل الآلهة الها واحدا وحاولوا صده فذهبوا الى عمه أبي طالب . يطلبون منه أن يكفه عن تسفيه آرائهم وعيب آلهتهم . ولكن الرسول قال لعمه اني أريدهم على كلمة واحدة بدين لهم بها العرب وتؤدى اليهم بها العجم الجزية فقال كفار قريش وما هي لنعطيكها وعشر معها . فقال عليه السلام « لا اله الا الله » ففزعوا ونفروا وقاموا مذعورين كأنما مسهم الجنون وخرجوا من عند أبي طالب غاضبين ، وقال بعضهم لبعض امضوا واثبتوا على طريقتكم ولا تدخلوا في دين محمد انه يريد بنا خطرا عظيما ومصيبة كبرى « وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب » كذبوه وقالوا ما سمعنا بهذا التوحيد الذي يدعو اليه « محمد » في ملة العرب السابقة التي وجدنا عليها آباءنا ورموه بالاختلاق والافك وعابوه وأعرضوا عنه وأنكروا ما جاء به مع أنهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين طوال أربعين عاما فلقد نشأ بينهم وتربى واستوى عوده أمام

أعينهم ولم يشاهدوا عليه ما يعيبه مطلقا فلم يروه يلم بريبة أبدا ولم يجربوا عليه كذبا بل كان طول حياته طاهرا عفيفا وصـادقا أمينا فلما قام يدعوهم الى التوحيد وترك الأصنام نسوا صدقه وأمانته واتهموه بالكذب والجنون والسـحر ـ مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبنـاءهم ويعلمـون أنه لم يكذب قط . والمنطق والعقل يقولان انه ما كان ليدع الكذب على النـاس ويكذب ويتقول على الله ـ كيف يكون هذا منهم وهم يعلمون انه من أعزتهم نسبا وأكرمهم موضعا .

الصـفات التي لازمت النبوة :

كان النبي محمد صلوات الله عليه وسلم أميا لا يقـرأ ولا يكتب ولكنه كان موفور العقل كامل الخلق ـ سـماحته عالية ورجاحته سامية وأخلاقه طاهرة ـ غزا بأخلاقه وفضائله نقائص أعدائه ـ فأي قرن يقوى على لقائه ـ لقد حبـاه الله وأكرمه ونعمه وزوده بفضيلة الثبات على المبدأ . ثبات أعيى القوى وفكك عرى وترك الأعداء حيارى يتخبطون في دياجير الظلام .

لقد قصرت عقول الـكفار عن أن تفهم شخصـية الداعي وعجزت قلوبهم عن أن تستوعب حقيقة الدعـوة المحمـدية ـ فالرسول والانسان الذي يؤمن بالحياة وبحق الأحياء ، والرسالة ووحي السماء ـ التقيا جميعا في محمد بن عبدالله التقاء وثيقا ـ فهذا النبي الأمي الذي لم يجلس الى معلم ولم يذهب الى كاهن ـ أضاء العالم نورا ومعرفة وثقافة وهـداية وليس أدل على أنه

نبى مرسل من أن أصحاب العقول السليمة دخلوا الدعوة المحمدية وخالط نور الاسلام قلوبهم بلا استئذان .

ولقد قال « ملك عمان » الملقب بالجلندى ـ عندما بلغته دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ـ قال الجلندى ـ والله لقد دلنى هذا النبى الأمى الذى لا يقرأ ـ انه اذا نهى عن شىء كان أول تارك له ، وأنه اذا أمر بشىء كان أول فاعل له ، وانه اذا غلب لا يبطر ـ واذا غلب لا يضجر ـ ويفى بالعهد ـ وينجز الوعد وأشهد أنه نبى » .

كان صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن . غطت سماحته العالمين فلم يعرف فى حياته هنة ولا منقصة ـ ولم يكن عند قريش شك فى صدقه ولم يأخذها ريب فى أمانته وعظمته ورجولته وكانوا فى قرارة أنفسهم يعلمون أنه صادق وأن ما جاء به حق لا مرية فيه . ولكن الغيرة والحسد أعمت قلوبهم فتاهوا فى متاهات الضلال ـ وليس أدل على ذلك من أن الأخنس بن شريق سأل أبا جهل يوم بدر ـ فقال له لا أحد يسمعنا الآن فأخبرنى أمحمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : ان محمدا لصادق ووالله ما كذب قط . فقال له : فلم تعاديه وتحاربه ما دمت تقر بصدقه ؟ قال أبو جهل : اذا ذهب بنوقصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة ، فماذا يكون لنا بعد ذلك ، وماذا يبقى لقريش بعد أن يكون منهم نبى مرسل يوحى اليه من السماء ؟!

ان هذا لشيء عجاب . كانوا يعرفون صـــدقه وأمانته وأن دعوته حق ولكن الحقد الأسود ملأ قلوبهم فأصمهم وأقفلها فلم تقبل داعى الله وانساقوا وراء الشيطان وحاربوا الرسل وآذوه وعدوا على كل من آمن به يعذبونهم ويفتنونهم فى دينهم وكلما اشتدوا فى الايذاء وازدادوا له عداوة كلما ازداد لهم حبا ودعا لهم بالهـداية وتوجـه الى ربه « اللهم اهـد قـومى فانهم لا يعلمون » .

فلما عجزوا عن أن يردوه ويصدوه عن سـبيل الله بالقـوة لجأوا الى الحيلة والى مغريات الدنيا ـ ظنا منهم أن المال والجاه والسلطان ربما يغريه ويلهيه عن دعوته وما علم هؤلاء الجاهلون أن عزة الفضيلة وقوة العقيدة وجاه الله وسؤدد الدين الحنيف وارضاء رب العالمين وانصاف البؤساء ومساعدة الفقراء ـ هو هدف الداعى محمد صلى الله عليه وسلم .

كان صلى الله عليه وسلم كريم النفس ميزته أخلاقه وسجاياه وعقيدته . وكان كلما اشتد ايذاء الكفار له وتجمعت السفاسف من حوله تحاربه ـ توجه الى الله قائلا « ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

جلال الحق وضلال البــاطل :

والله ان النفس لتهتز اهتزازا . والقلب ينفعل اكبارا واعظاما واجلالا لأخلاق ذلك الرسول . وسماحة هذا النبى وحسن كماله.

ووفور عقله . وشمائله وفضائله . التى استحق من أجلها أن يمدحه الله رب العالمين فقال له « وانك لعلى خلق عظيم » .

لقد وهب هذا النبى الأمى . حياته للدعوة الاسلامية ووطد نفسه على الصبر المر والكفاح والنضال حتى يصل بالانسانية الى رقى درجات الكمال ويؤمن الناس جميعا بهذا الدين الذى ارتضاه الله للعبد جميعا نصبر على الأهوال . وفتح قلبه للناس جميعا حتى الذين آذوه دعا لهم بالهداية .

جاء صلى الله عليه وسلم بالذكر الحكيم الذى هو من عند رب العالمين . فيه هدى ونور . ودستور للخلائق أجمعين . فاتهموه بالجنون وقال كفار قريش فى حقه كما يحكى القرآن الكريم « قالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون » .

فكذبهم الله وبرأه مما قالوا وما نسبه المشركون اليه من الجنون وأن هذا منهم ماهو الا حسد ومن وغيرة وحقد وكفر بالله وأقسم الله على ثبوت الأجر الدائم والثواب العظيم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على صبره على الأهوال وتحمله المشاق فى سبيل الله وثباته فى سبيل العقيدة ومكافحته فى سبيل الله فقال تعالى « ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون . وانك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » .

لم يكتف المشركون بكفرهم وعدم ايمانهم بل كانوا يعملون جاهدين لصد المؤمنين عن الايمان وفتنتهم فى دينهم فكانوا يستهزئون بالمسلمين ويتغامزون عليهم اذا مروا بهم — كان الأسود الأسدى يجلس ومعه فريق من قريش على قارعة الطريق يتغامزون ويضحكون من المسلمين — فأنزل الله يدمغه هو ومن معه ويشهر به فى قرآنه الكريم « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . واذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » .

وكان من شر الآثام التى يعمد اليها الكفار . هذا الضلال الذى كانوا يشيعونه بين الناس ويرمون به النبى عليه السلام هو أن الشياطين . تنزل عليه . فسجل عليهم الوحى السماوى هذا الضلال ودافع الله عن نبيه فى قرآن كريم فقال « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

كان الكفار يتخبطون تخبط الأعمى الهالك المضروب على سمعه وقلبه وبصره فاتهموا الرسول بأنه شاعر فرد عليهم رب العالمين ودحض باطلهم فى قرآن كريم « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

كان كفار قريش سفهاء ظالمين فعدوا على المستضعفين من المؤمنين يسومونهم العذاب ولكن المستضعفين من المسلمين كان ايمانهم قويا فصبروا على الأهوال وثبتوا على دينهم .

كان آل ياسر — يعذبون على يد نبى مخزوم من قريش . فصبوا العذاب صبا على سمية شهيدة الاسلام وعلى عمار وياسر وكان عذابا فادحا ، وكان يمر بهم الرسول فيرى ما هم فيه من العذاب فيقول لهم « صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة » ولقد استشهدت سمية وياسر ؛ ولقد عذب أبو جهل ، قبحه الله ، أمة مسلمة ، وسامها أشد أنواع العذاب وظل يعذبها حتى ماتت مؤمنة صابرة مستشهدة في سبيل الله وهى تقول أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله — وكلما أمعن الكفار فى الانتقام من أصحاب رسول الله وتعرضوا له بالايذاء . أنزل الله سكينته على رسوله ليثبت فؤاده وقال له بلسان الوحى السماوى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

فكان الرسول يتمنى ويأمل ويعمل جاهدا لكى يهتدى الكفار والناس أجمعون وكلما أمعنوا فى كفرهم وتمسكوا بضلالهم اشتد أسف الرسول وحزنه وهمه خوفا عليهم فأنزل الله عليه يقول : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى » .

لا تحزن يا محمد ولا تشق لشقائهم فانما نزل عليك القرآن هداية لهم وما عليك الا البلاغ ولقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة

فلا عليك بعد ذلك آمنوا أو لم يؤمنوا انما عليك البلاغ وعلينا الهداية .

« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

النضال فى سبيل الله :

جاءت الرسالة المحمدية تحمل الى الناس أنوار الهداية والرحمة والانصاف للبؤساء وكان النبى محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة فلما كذبوا وضلوا خوفهم عقاب الله وذكرهم بطوفان نوح وصواعك عاد وثمود ومهلكات قوم هود ولوط :

« وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى . هذا نذير من النذر الأولى » .

ولكنهم ما روا فى لحق وجادلوا بالباطل ولم يذعنوا لحكم المنطق والبرهان وهبوا فى وجهه يريدون الفتك به والقضاء على دعوته وهلاك من آمن به . وآذوه وأخرجوه من وطنه وشردوه ومن معه من المؤمنين ــ فلما عم الضلال وكثر الظلم وانصب العذاب الفادح على الضعفاء من المسلمين أوحى الله الى نبيه بالجهاد وأذن له بالقتال فى سبيل الله :

« وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية

الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا »

وسبيل الله هو هداية الناس بالحكمة والموعظة الحسنة . وانصف البؤساء . والقضاء على فتنة النفوس وتعذيب الضعفاء وتخليص مجتمع المسليمين من الارهاب ، والدفاع عن الدعوة التى وقف فى سبيلها جبروت الطغاة يعذب المؤمنين ويمنع الداعى من اداء الرسالة وتبليغ الامانة :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

أعلن محمد صلى الله عليه وسلم . الثورة على الظلم والفساد والطغيان واقناع البشر . ونادى فى المسلمين أن يحملوا السلاح لدفاع عن دينهم . حتى تقوم شريعة الله فى الأرض ويطهر البيت الحرام وتهدم الأوثان التى أقامها الكفار رمزا للاشراك وعنوانا على الجهل والضلال .

لذ ... النبى محمد به أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا عدو الله وعدوهم — وتسطع شمس الهداية على العالمين . ونزل الوحى السماوى بالأمر الالهى للمسلمين بالقتال وبألا تأخذهم رحمة بالكفار « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » . وأوحى الله الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم — أن

يحرض المؤمنين على القتـال ويشعل الحمية فى نفوسهم نيثأروا للضعفاء والمساكين وينتصر الحق على الباطل :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتـال . ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

أمر سماوى ونداء من رب العالمين لنبيه محمد ـ أن يحمى أنوف المؤمنين ويحرضهم على قتـال المشركين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وآذوا المساكين . فلبى المؤمنون داعى الله ورسوله . ونفروا خفافا وثقـالا يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ويناضلون حتى تأسست دولة التوحيد ودانت لهم الدنيا وانتشر الاسلام فى كل مكان .

حقد يهود بني قينقاع :

أكبر الكبائر وأعظم الخطايا نقض العهود ، وأقبح الذنب الكذب والغدر ، وشر الضلال الحقد والغيرة وعمى القلوب ـ وهكذا كان أمر يهود بنى قينقاع ـ نقضوا عهدهم مع الرسول عليه السـلام عندما رأوا ما حل بقريش من الهـزيمة يوم ـ بدر ـ وتحصنوا بحصونهم وأظهروا عدوانهم لله ولرسوله وللمؤمنين فسار اليوم الرسول صـلى الله عليه وسلم . يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب وحاصرهم ومناهم بالفشل والهزيمة أراهم العجز من أنفسهم عن مقاومة المؤمنين ـ فأدرك اليهود الرعب والخوف والفزع ..

وهذا دأبهم . جبناء . حقراء . أذلاء مهما تظاهروا بالقوة وتبجحوا بالجبروت ــ فاستسلموا صاغرين وطلبوا من الرسول أن يخرجوا من حصونهم ويتركوا المدينــة فارين بأجسادهم ويأخذوا معهم أولادهم ونساءهم ويتركوا أموالهم . فقبل منهم الرســول ذلك وخرجوا يهيمون على وجوههم مشردين أبدا ، وتائهين سرمدا .

شذوذ يؤكد القاعدة :

كان ممن قتل يوم -- أحد -- مخيريق اليهودى -- فلما علم النبى بمقتله جلس فى وسط أصحابه وقال «مخيريق خير يهود واذا كان المسلمون يذكرون -- مخيريق اليهود بالخير ــ فانما يقدسون عظمة الوفاء والثبات على المبدأ ــ فما أروع الوفاء الذى وفاه ذلك اليهــودى فى قومه ــ ياقوم الوفاء بالعهد لمحمــد ــ الوفاء ــ ولكنه حارب معه وقاتل قريشا حتى قتل وفاء لعهده وبرا بوعده ــ فقد كان بين رسول الله وقوم مخيريق عهد وميثاق بأن ينصروه اذا اعتــدى عليه من المشركين ــ فلمــا خرجت قريش بكيدها وحقدها تريد مداهمة الرسول وأصحابه الآمنين فى المدينة ــ وخرج النبى ومن معه للدفاع عن أنفســهم -- نادى مخيريق اليهــودى فى قومه ــ يا قوم الوفاء بالعهد لمحمد ــ الوفاء ــ الــوفاء ــ ولكنهم كانوا مخــادعين مضللين غادرين فاسقين . فجادلوا -- مخيريق -- وحاوروه بالباطل وقالوا له -- ان اليوم يوم سبت ونحن لا نحارب فى يوم السبت ــ فقال لهم مخيريق ــ ان محمــدا لم يبغ حربا ولم يذهب اليهم فى بلدهم ليحاربهم

ولكنهم هم الذين أتوا اليه يريدون الفتك به ومداهمته فى بيته وهو لم يرتب للحرب أو يعمل لها ولم يخترلها يوما ولم تخطر بباله وانما أجبر عليها وأكره على القتال وأرغم على الحرب فنصر محمد حق واجب مفروض عليكم . فلا سبت لـكم ــ وكونوا أوفياء بعهدكم فلا تنقضوه مع محمد ــ ولكنهم مردوا عـلى الخيانة والنفاق ، فامتنعوا عن الوفاء بعهدهم . فتركهم مخيريق ، وذهب وحده وحمل سلاحه ليفى بعهده ويقاتل مع الرسول هذه الفئة الظالمة الباغية ــ فقاتل مخيريق حتى قتل فى ذلك اليوم ــ ووالله ان كتب التاريخ الاسلامى لوفية لذكره لوفائه حافظة . فتذكره بالخير ــ ويمجده المسلمون وفاء له كما كان وفيا لنبى المسلمين .

وكما قاتل مخيريق حتى قتل دفاعا عن محمد وأصحابه وفاء لعهده ــ فقد قاتل ابنه بعد ذلك مسلما مؤمنا بمحمد عليه‌السلام مدافعا عن الاسلام حتى استشهد فى سبيل الله فالتقى الابن مع أبيه فى الوفاء وفاق أباه فى الجزاء والثواب من الله « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ».

غدر اليهود ونقضـهم للعهود :

شر العمى عمى القلوب . وأقبح الرذائل الرجولة المسلوبة . وأحط السيئات . الأخلاق المنهوبة ، والكذب فى الحديث وخيانة العهود .

وهذا هو طبع اليهود — فلا أمان ليهودى ، بل غدر وخيانة، ونفاق ورياء ، وممالأة وغرور ، وخسة ودناءة . وقلوب عمياء . وتفرق فى الأهواء لأنه لا سلامة فى القلوب التى فى الصدور .

ولقد غر اليهود باطلهم المذموم وتبجحوا بالقوة وتظاهروا بالجبروت وتمردوا على رسول الله — وظنوا أن حصونهم مانعتهم وقادرة على حمايتهم — فنقضوا عهدهم مع محمد صلى الله عليه وسلم بعد — غزوة أحد — ومالؤا قريشا وقالوا نحن أولو قوة وبأس شديد فى الحرب وأصحاب فن فى القتـــال وعلم بأمور الحرب — ولسنا أمثال قريش . فلن يستطيع محمد ومن معه أن يهزمونا — وأخذوا يدبرون المكائد للقضاء على رسول الله ومن معه من المؤمنين وحدث أنه قدم على رسول الله أبو براء عامر بن مالك بن جعفر — فعرض عليه الرسول الاسلام ، فلم يسلم — ولكنه طلب من الرسول أن يبعث الى أهل نجد من يعلمهم هذا الدين فبعث النبى صلى الله عليه وسلم أربعين رجلا من أصحابه. فساروا حتى نزلوا بئر معونة — وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم — فبعثوا منهم « حرام بن ملحان » بكتاب رسول الله الى عدو الله . عامر بن الطفيل — فلما أتاه بالـــكتاب لم يقــرأ ما فيه ومزقه وأطاح عنقه بالسيف فقتله وصرخ فى بنى ســـليم حتى أحاطوا برهط رســـل الرسول وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم غير عمرو بن أمية الضمرى ، فقابل وهو فى طـــريق عودته الى الرسول رجلين من بنى عامر فقتلهما ثأرا لأصحابه ولم يكن يعلم أن معهما كتاب عهد من رسول الله .

الفئة الباغية من بني النضير :

وأبى وفاء الرسول الأمين الا أن يدفع الى أهل القتليين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ديتهما ، فذهب الى منازل بنى النضير ، وطلب منهم أن يعينوه فى دفع دية الرجلين فرحبوا به وقالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت فنحن حلفاؤك ومعاهدوك ومناصروك ولن نخذلك على شيء تريده وترضاه . ولكن الغادرين الخائنين سرعان ما أقبل بعضهم على بعض يتذامرون ويتآمرون بقتل الرسول ـ وقال بعضهم لبعض ان محمدا جالس بجوار جدار ، فهل من رجل يعلو على هذا البيت ويلقى عليه صخرة فيقتله فنستريح منه وتستريح العرب . ويكون لنا الفخر بقتل محمد ـ فقال : عمرو بن جحاش بن كعب ـ أنا أفعل ذلك ـ فأوحى الله الى نبيه محمد بمكر اليهود وبما دبروه له ، فقام النبى واستأذن أصحابه وأوهم اليهود أنه ذاهب لقضاء حاجته وتوجه الى المدينة ـ ولما استبطأ أصحابه عودته رجعوا الى المدينة ـ فأخبرهم الرسول بما أوحى اليه به الله من أمر بنى النضير ـ فاشتعلت نفوسهم غضبا لله ولرسوله واجتمعوا جميعا الى الرسول فسار بهم النبى الى بنى النضير ـ فتحصنوا منه بحصونهم ـ فحاصرهم النبى وأمر بقطع نخيلهم وتحريقها حتى يثير فى نفوسهم الحفيظة للخروج من حصونهم ويشتبك معهم ويقاتلهم ـ ولكنهم كانوا جبناء ضعفاء أذلاء ـ فنادوا الرسول من وراء الحصون ـ يا محمد . قد كنت تنهى عن

الفساد وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ــ وما دروا أن فسادهم أكبر وأشنع وأنهم يستحقون العذاب والهوان والحرق وأن الله أنزل على نبيه فى شأنهم « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » .

وكان فى صفوف المسلمين ــ رهط من المنافقين وعلى رأسهم شيخ النفاق وزعيم الضلال ــ عبد الله بن أبى بن سلول -- كان قد أرسل الى بنى النضير ــ أن يثبتوا ويقاتلوا وأنه هو ومن معه سينضم الى صفوفهم ويحارب معهم ــ ولكنه كان وعد المنافق الفاجر الذى لا عهد له . فعندما رأى تقطيع نخلهم وتحريقهم وشاهد الرعب الذى قذفه الله فى قلوب بنى النضير ــ لزم مكانه مع المسلمين ونافق ــ وانتظر بنو النضير منه أن ينصرهم أو ينضم اليهم فلم يفعل ــ فلما اشتد عليهم الحصار وكادوا يهلكون من الجوع والظمأ ــ طلبوا من الرسول أن يجلوا عن أماكنهم ويكف عن دمائهم ويحملوا ما يستطيعون حمله من الأموال ويتركون سلاحهم فقبل الرسول الكريم ــ وتركهم يفرون بخزيهم وعارهم فخرج بعضهم الى خيبر وبعضهم الى أرض الشام .

وهكذا يضرب الله دائما الذلة والمسكنة على اليهود ويشتت شملهم لنقضهم العهود وعداوتهم للاديان الذى هى من عند الرحمن .

أحزاب الشيطان :

خرج جماعة من اليهود يحزبون أئمة الكفر . ويجمعون حلفاء الشيطان لكى يقضوا على الرسول ويسأصلوا شأفة من معه من المؤمنين . فذهب نفر من اليهود ـ منهم حيى بن أخطب من يهود بنى النضير ـ وأبو عمار الوائلى من بنى وائل ـ ذهبا على رأس وفد من اليهود يحزبون الكفار ويؤلبون قريشا ويغرون الناس بحرب محمد صلى الله عليه وسلم ـ وذهبو الى قريش وقالوا لهم انا سنكون معكم على عدوكم الذى عاب دينكم وقتل خياركم فقالت قريش ـ بل نريد أن نعرف منكم رأيا فأنتم معشر اليهود أهل الكتاب الأول ـ أخبرونا أديننا خير أم دين محمد ـ فقالت اليهود دينكم خير من دين محمد وأنتم أولى بالحق منه ففرحت قريش ـ ودعت الجموع من قبائل العرب لحرب الرسول واستطاعوا أن يكونوا جيش الأحزاب من اثنى عشر ألفا من قريش وغطفان وقبائل أسد وبنى عامر وسليم ويهود بنى قريظة ويهود بنى النضير ، وزحفوا على المدينة يريدون أن يدهموا الرسول ومن معه .

فعلم بذلك رسول الله فجمع أصحابه وشاورهم فأشار سلمان الفارسى على الرسول بحفر الخندق حول المدينة فى الجهات المكشوفة ليوقف تقدم الكفار ـ فحفر المسلمون الخندق وعمل معهم الرسول ونقل التراب وحفر بيده الشريفة فى الخندق

وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سـكينة علينـا وثبت الأقدام ان لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـة أبينا .

وأتم المسلمون حفر الخندق وعسـكروا فى ثلاثة آلاف مجاهد فى سبيل الله والخندق بينهم وبين أحزاب الشيطان وترامى القوم بالنبال ــ واشتد الحصار على المسلمين واستمر الحال على ذلك بضعا وعشرين يوما ــ وزاد من شدة الحصار أن بنى قريظة من اليهود نقضوا عهد رسول الله فلما بلغ ذلك النبى أرسل لهم سعد بن معاذ بن النعمـان : سيد الأوس وسـعد بن عبادة . وعبدالله بن رواحة ، فلما ذهبوا ليتحققوا من الأخبار التى وصلت الرسول وجدوهم خونة جبناء ، حقراء خبثاء ، وقالوا لهم لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ ثم أقبل على رسول الله وأخبره بخياتتهم .

واشتد الحال على المسلمين وأتاهم العـدو من فوقهم ومن تحتهـم « اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسـفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

شعر المسلمون باشتداد الأمر عليهـم وبدأ المنـافقون فى صفوف المسلمين يقولون ان محمدا كان يعـدنا بكنوز كسرى وقيصر واليوم لا يأمن أحدنا على نفسه أن يذهب الى الخـلاء وحده .

« هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »

فلما رأى رسول الله شدة البلاء على المسلمين بعث صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن بن حذيفة والى الحارث بن عوف ابن أبى حارثة المرى ، وكانا زعماء غطفـان ــ يوم الأحزاب ــ وصالحهم الرسول على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينـة ، على أن يرجعا بمن معهما من قبائل غطفان ولا يحاربوا أصحابه . ولما تم الاتفاق أرسل الرسول عليه السلام الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فقالا له : يارسول الله ، أشيء أمرك الله به فلابد لنا من عمله أم أمر تصنعه لنا ؟ فقـال النبى : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك الا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبـوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما ساعة » .

فقال سعد بن معاذ رضى الله عنه ــ يا رسول الله . قد كنـا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ــ وهم لا يطمعون أن يأكلوا منهـا ثمرة الا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له ، وأعـزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننـا وبينهم ، فقـال له النبى « أنت وذاك » فتناول سـعد بن معاذ الصـحيفة فمحا ما فيها ، ثم قال رسول الله : ليجهدوا علينا .

اختبر الله المؤمنين بشدة بأس الكفار وشدة الحصار ليتبين للرسول من هم المؤمنون حقا ومن هم المنافقون ، وأتى نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة من غطفان : الى الرسول وقال له يا رسول الله انى قد أسلمت : وان قومى لم يعلموا باسلامى ، فمرنى بما شئت ، فقال له النبى « انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت ، فان الحرب خدعة » ــ فخرج نعيم بن مسعود وذهب الى بنى قريظة وقال لهم تعلمون ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ! فقالوا له صدقت . فقال لهم : انى لكم ناصح وأخاف عليكم ، وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة للنصر انتهزوها والا انصرفوا الى ديارهم . ولحقوا ببلادهم أما أنتم فساكنون معه فى بلد واحد ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه ان خلا بكم ــ فلا تدخلوا فى الحرب وتقاتلوه حتى تأخذوا منهم سبعين رجلا من أشراف القوم يظلوا رهنا عندكم . ويكونون بأيديكم ثقة لكم على أنهم لن يتركوكم وحدكم وينصرفوا الى بلادهم فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

وأتى الى قريش فقابل أبا سفيان بن حرب ومعه نفر من قريش فقال لهم قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا ــ وانه قد بلغنى أن بنى قريظة يريدون بكم كيدا ويدبرون لكم أمرا وأنهم ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ــ وقد أرسلوا اليه انا ندمنا على ما فعلنا واتفقوا معه على أن يأخذوا سبعين رجلا من أشرافكم ويسلموهم له يضرب أعناقهم ثم يكونون معه عليكم . فان بعث

اليكم يهود بنى قريظـة يلتمسون منكم رهنـا من رجالكم فلا ترسلوا اليهم منكم أحدا فانى لكم ناصح ــ ثم أتى الى قبـائل غطفان فقال مثل ما قال لقريش .

وهكذا بذر الشك فى قلوب الفريقين وأوقع الخلاف بينهم . وفى ثانى يوم أرسل أبو سفيان وزعماء قبائل غطفان ، عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان . وطلبوا من يهود بنى قريظة أن يغدوا للقتال معهم فى الغد فقالوا لهـم لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم حتى نناجز محمدا ــ فلما علمت قريش وغطفان بذلك قالوا ان الذى تحدث به ــ نعيم بن مسعود ــ لصدق ، ولم يرسلوا اليهم واحدا يكون رهنا عنـدهم . فقالت اليهود ان الذى تحدث به نعيم بن مسعود لحق ــ وباء الفريقان بالفشل وكان نبى الله يدعو ربه « اللهم يا منزل الكتاب . ويا سريع الحساب . اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وحتى يعلم الناس جميعا أن وعـد الله حق وان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم صدق وأنه سميع مجيب لنبيه اذا دعاه ومكشف الضر عنه وعن كل من يلجأ الى رب العالمين .

ثم أرسل الله على جموع الأحزاب ، ريحا باردة فى ليلة مظلمة كفأت قدورهم وقلعت خيامهم وهدمت أبنيتهم ، فقام أبو سفيان وقال : يا معشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقـد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ــ ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا

نار . ولا يستمسك لنا بناء ــ فارتحلوا فاني راحل ــ وانطلق أبو سفيان ، فانطلق الناس وراءه سراعا وتفرقت جموع الأحزاب ورحلوا عن المدينة . وسجل الله فى قرآنه الكريم فرارهم وخزيهم فقال تعــالى « يٰأيها الذين آمنــوا اذكروا نعمــة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون خبيرا » .

رد الله جموع الأحزاب خائبة ورجعت قريش بغيظها وتركوا يهود بنى النضير بحقدهم وخسرانهم ــ فخر المؤمنــون ساجدين لله شــكرا .

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينــالوا خيــرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » .

جزاء الخــائنين :

أحس الرسول ومن معه من المؤمنين فى غزوة الخندق يوم تحزب الكفار وتجمعت الأحزاب للقضاء على الاسلام والمسلمين، بمرارة الخيانة وشناعة الطعنة القاتلة التى تلقوها من يهــود بنى قريظة ــ بنقضهم العهد والميثاق الذى كان بينهم وبين الرسول .

وما ان انصرف الرسول من موقع الخندق ودخل المدينــة والمسلمون معه ــ حتى نزل جبريل عليه السلام من السمــاء ــ فقال للنبى « أوقد وضعت السلاح يا رســول الله ، قال نعم :

فقال له جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد . وما رجعت الآن الا من طلب القوم ـ ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمزلزل بهم » .

فأمر الرسول مؤذنا فأذن فى الناس « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة » .

فتجهز الناس سراعا ـ ومشى رسول الله الى بنى قريظة فوجدهم قد علموا بمسيرته اليهم وتحصنوا بحصونهم وكان معهم عدو الله ـ حيى بن أخطب ـ زعيم يهود بنى النضير ـ دخل معهم حصونهم ـ فحاصرهم الرسول وشدد عليهم الحصار فلما أيقنوا أن رسول الله غير تاركهم حتى يقاتلهم قال لهم كعب ابن أسد ـ يا معشر يهود ـ قد نزل بكم من الأمر ما ترون ـ وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا لتختاروا أيها شئتم . قالوا وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ـ فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه للذى تجدونه مكتوبا فى كتبكم ـ فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ـ فقالوا له ـ لا نفارق ديننا ولا نستبدل بالتوراة كتابا غيرها ـ فقال لهم : اذا هلم بنا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد ومن معه ـ رجالا مصلتين سيوفنا . لم نترك وراءنا ثقلا فان نهلك نهلك ـ ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ـ وان نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ـ فقالوا له ـ لا نقتل هؤلاء المساكين فلا خير فى العيش بعدهم ـ فقال لهم ـ ان الليلة ليلة السبت ـ وأغلب الظن

أن محمدا وأصحابه آمنون فيها فلنخرج اليهم على غرة ونقاتلهم ــ فقالوا له ــ لا تفسد سبتنا بأيدينا ــ فقال لهم ــ ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

فلما أيقن يهود بنى قريظة أنهم مهلكون ومهـددون بالفنـاء جوعا وعطشا ــ طلبوا من الرسول وهم أذلاء ــ أن يعاملهم معاملة يهود بني النضير ــ فيرحلوا ويأخذوا معهم ما يستطيعون حمله فقال النبى لا فطلبوا أن يعاملهم معاملة يهود بني قينقاع ــ فلا يأخذوا شيئا ويفرون بأجسادهم جبنـاء حقراء فرفض الرسول اجابتهم الى كل ما يطلبونه ــ ووكل أمرهم الى سيدهم ــ سعد ابن معاذ ــ فأسرع اليه بعض الناس وقالوا له يا سعد انما ولاك رسول الله ذلك تحسن فيهم فأحسن الى مواليك ــ فلما أكثروا عليه الكلام ــ قال أني لسعد ألا تأخـذه فى الله لومة لائم ــ وحكم بضرب أعناق رجالهم وسبى نسـائهم وذراريهم وقسمة أموالهم ــ وهكذا تبوأ يهود بنو قريظة مقعدهم فى النار وأورث الله المسلمين أموالهم وديارهم ــ ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب .

فتـــح خيبر :

كان ولا يزال اليهـود على مختلف العصور من أشـد الناس عداوة للاديان وكرها للرسل والأنبياء ولقد اشتد حقد يهـود خيبر ــ على النبى صلى الله عليه وسلم ــ وكانوا أعظم وأكبر مهيج للاحزاب فى عزوة الخندق فلما أخزى الله الأحزاب وقضى

على يهود بني قريظة وكان فيهم يهود من خيبر مع حيي بن أخطب ـ ازدادت نقمة يهود خيبر على الرسـول وأصـحابه وأخذوا يدبرون المكائد للمسلمين .

لذا رأى رسول الله أن يطهـر المجتمع الانسانى من هـذه الأعضاء الفاسدة فأمر مناديا ينـادي فى المسلمين بالخروج الى خيبر .

وكان ذلك فى محرم فى السنة السابعة من الهجرة وكانت خيبر تبعد عن المدينة المنورة بحوالى مائة ميل من الشمال الغربى وكانت حصونهم ثلاثة منفصل بعضـها عن بعض ـ فسار اليهم الرسول وحاصرهم وشدد عليهم الحصار وضيق عليهم الخنـاق ثم قال لأصحابه « سأعطى الراية غدا لرجل يحب الله ورسـوله ويحبانه » .

فبات المهاجرون والأنصـار يتمنونها ـ حتى ان عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنه قال « ما تمنيت الامارة الا ليلتئذ » فلما كان الغد سأل الرسول عن ـ على بن أبى طالب ـ فقيل له ان في عينيه رمدا ـ فأرسل الرسول اليه فلما جاءه تفل فى عينيه فشفاهما الله ـ كأن لم يكن بهما شيء ـ ثم أعطاه الراية وحمل المسلمون على اليهود وشددوا عليهم فى القتـال فكان اليهـود يفرون ويهربون من حصن الى حصن وكلما لاذوا بحصن هجـم عليه المسلمون هجمة صادقة خالصة لله حتى قذفـوا فى قلوبهم الرعب والخوف فاستسلموا صاغرين وسلموا أذلاء جبناء طالبين

حقن دمائهم وأن يفروا بأجسادهم لا يأخذ الواحد منهم الا ثوبا واحدا على ظهره .

فأجابهم الرسول على ذلك وتم النصر للمسلمين وغنموا من خيبر مغانم كثيرة .

وفى هذه الغزوة أهدت امرأة يهودية ـ كراع شاة مسمومة الى رسول الله وأكثرت من السم فى الذراع لأنها عرفت أنه أحب شىء الى النبى فى الشاة ـ فأكل منها : بشر بن البراء ـ فمات لوقته ـ وأكل منها الرسول فلفظها فقد عرف أنها مسمومة . وجىء له بالمرأة التى فعلت ذلك فسألها النبى عن سبب وضعها السم له .

فقات : قلت ان كان نبيا لن يضره ـ وان كان كاذبا أراحنا الله منه ـ فعفا عنها الرسول .

فما أروع هذا النبى الكريم نبى الرحمة والتسامح والصفح الجميل .

جيش العسرة :

وفى السنة التاسعة من الهجرة غزا رسول الله ـ أهل تبوك ـ وسمى جيش المسلمين فى هذه الغزوة جيش العسرة ففيها أنفق سيدنا عثمان عشرة آلاف دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز فرسانا للقتال فى سبيل الله وتصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع أمواله

وبهذه الأخلاق الفاضلة والنضال وصمود الرسول وثبات المؤمنين معه على القتال وخروجهم للحرب فى سبيل الله فى أى مكان وزمان . انتشر الاسلام وعم نوره على المعمور من الكون.

ووفدت الوفود من كل مكان على رسول الله يعلمهم ويفقههم أمور الدين الحنيف الذى ارتضاه الله للخلائق دينا ليعلموا قومهم اذا رجعوا اليهم .

وأتم الله نوره فى الأرض وأدى محمد صلى الله عليه وسلم الأمانة وبلغ الرسالة وناضل وكافح وصمد مع الرسالة وثبت مع العقيدة حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وقالوا ــ أشهد أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله .

وعبد الله فى الأرض وتطهرت النفوس من أدران الشرك فأنزل الله على نبيه ــ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .

وبعـــد ...

فهذه آثار من كفاح النبيين والمرسلين ، الذين اختارهم الله ، وطهرهم . واصطفاهم على العالمين ، واجتباهم ، وأتم نعمته عليهم ، فامتلأت قلوبهم هداية وطهرا ، وطبعت نفوسهم على الخير — تأمل وتعمل ، وترجو وتتمنى ألا يبقى على وجه الأرض جمـود ولا جحود ولا شر — وأن تعمم رسالة التوحية فى الأرض — ويعبد الله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين — وأن تكون دنيا النـاس وحياتهم كلها خير وعمل صالح .

بعث الله النبيين والمرسلين وجعلهم أمنـاء على الناس فأدوا الأمانة وبلغوا الرسـالة — وأعلموا الناس أسرار التنزيل — وجاءوهم بكتب سماوية وشرائع دينية من عند الرحمن الذى خلق الانسان — فيها هدى ونور ومنافع للناس .

وأعود فأقول أننى لست أدعى قصـد الاحاطة فى هـذه الصفحات بجوانب هذا الموضوع الخطير ، وانما هى كلمة تذكرة من كلام لا يمل ، وومضة تبصرة من نور لا يخبو ..

ولعل القــارىء الكريم يعذرنا اذا انتهينا فى كفاح رســول الاسلام الى هذا القدر الضئيل ، ولكنه كاف لما فيه من بيان غدر يهود وخستهم وجبنهم ..

وكاف ليلقى الضوء على الدور التاريخى الذى ألقى على هذه الأمة الالتحام فى اسرائيل ..

وكان لبيان الدور البطولى الذى يقفه قائدنا وزعيمنا اليوم وبيده من أسباب النصر ما ليس فى أيدى الأعداء ، من عون الله ومدد السماء .

ولن يخيب امرؤ عرف الحق فصانه ، وكره البــاطل فأهانه .. وانها لنبوءة رسول الله لأمته : « لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، وحتى يقول الحجر : يامســلم هــذا يهــودى ورائى فاقتله » .

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

لجنة القرآن المرتل

[illegible]

[illegible] ...

يسر لجنة القرآن المرتل أن تعلن عن بيع ..

- رواية حفص عن عاصم وترتيل الشيخ محمود خليل الحصري
  44 إسطوانة مع جنيه
  بالغلاف الفاخر 23.796
  بالغلاف العادي 19.322
  السرعة 33 1/3 لفة في الدقيقة

- رواية ورش عن نافع وترتيل الشيخ محمود خليل الحصري
  68 إسطوانة الثمن 35 جنيه ,150 مليم
  السرعة 33 1/3 لفة في الدقيقة

- كما يسر اللجنة أيضاً أن تعلن عن بيع مجموعة إسطوانات تعاليم الصلاة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية

الإسطوانة الأولى شاملة للأذان . والثانية تشمل كيفية الوضوء . والخمس إسطوانات الأخرى لكل صلاة من الصلوات الخمس . وتضم كل إسطوانة كتيب يشرح كل فريضة . بالكلمة والصورة

الثمن 50 قرشاً

مواعيد البيع :
من الساعة 9 صباحاً إلى الساعة 2 مساءً و من الساعة 5 مساءً إلى الساعة 9 مساءً
ما عدا أيام الجمع والعطلات الرسمية

العنوان { القاهرة : معارض القرآن المرتل 26 شارع الجمهورية ت 911708
الإسكندرية : فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 49 شارع سعد زغلول ت 28662

(مطابع شركة الإعلانات الشرقية)

الثمن قرشان